بُنَاة دَوْلَةِ الإِسْلام

٣٤

سَعْدُ بنُ أبي وَقّاص

رضي الله عنه

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«هَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤٌ خَالَهُ»

رواه الترمذي والطبراني

أُسْرَةُ سَعْدٍ

هُوَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ بنِ أُهَيْبِ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ زُهْرَةَ. وَبَنُو زُهْرَةَ أَحَدُ بُطُونِ قُرَيْشٍ المَعْرُوفَةُ بِنُبْلِهَا والمَعْدُودَةُ.

وَأَبُو وَقَّاصٍ اسْمُهُ مَالِكٌ اشْتَهَرَ بِكِنْيَتِهِ وَبِهَا عُرِفَ، كَمَا نُسِبَ إِلَيْهَا أَبْنَاؤُهُ.

أُمُّهُ:

حَمْنَةُ بِنْتُ سُفْيَانَ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ بنِ عَبْدِ مَنَافِ بنِ قُصَيٍّ بنِ كِلاَبٍ. فَأَبُوهُ زُهْرِيٌّ، وَأُمُّهُ أُمَوِيَّةٌ عَبْشَمِيَّةٌ.

زَوْجَاتُهُ:

تَزَوَّجَ سَعْدٌ عِدَّةَ زَوْجَاتٍ، وذَلِكَ بَعْدَ إِسْلاَمِهِ، إِذْ أَسْلَمَ صَغِيراً، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَزَوَّجَ بَعْدُ، كَمَا كَانَتْ عِنْدَهُ عِدَّةَ أُمَّهَاتِ أَوْلاَدٍ.

١ً - تزَوَّجَ ابْنَة شِهَابِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الحَارِثِ بنِ زُهْرَةَ، وَذلِكَ فِي مَطْلَعِ شَبَابِهِ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّهِ فَهِيَ زُهْرِيَّةٌ مِثْلَهُ.

٢ً - وَتَزَوَّجَ مَاوِيَةَ بِنْتَ قَيْسِ بنِ مَعْدِ يكرِبِ مِنْ كِنْدَةَ.

٣ً - وَتَزَوَّجَ أُمَّ عَامِرٍ بِنْتَ عَمْرِو بنِ عَمْروٍ مِنْ قَبِيلَةِ بَهْرَاءَ.

٤ً - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي بَكْرِ بنِ وَائِلٍ تُدْعَى زَبَدَ.

٥ً - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي تَغْلِبِ بنِ وَائِلٍ تُسَمَّى سَلْمَى.

٦ً - وَتَزَوَّجَ خَوْلَةَ بِنْتَ عَمْرِو بنِ أَوْسٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبِ بْنِ وَائِلٍ أَيْضاً.

٧ً - وَتَزَوَّجَ أُمَّ هِلاَلٍ بِنْتِ رَبِيعٍ مِنْ مَذْحِجٍ.

٨ً - وَتَزَوَّجَ أُمَّ حَكِيمٍ بِنْتِ قَارِظٍ مِنْ كِنَانَةَ.

٩ً - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تُدْعَى سَلْمَى بِنْتَ خَصَفَةَ، وَكَانَتْ زَوْجَ المُثَنَّى بنِ حَارِثَةَ قَبْلَهُ.

١٠ً - وَتَزَوَّجَ امْرَأَةً تُدْعَى طَيِّبَةً.

١١ً - وَتَزَوَّجَ أُمَّ حُجَيْرٍ.

أَوْلاَدُهُ:

كَانَ لِسَعْدٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنَ الوَلَدِ وَهُمْ:

١ - إسْحَاقُ الأَكْبَرُ: وَبِهِ يُكَنَّى، وَأُمُّهُ ابْنَةُ شِهَابِ الزُّهْرِيَّةُ.

٢ - عُمَرُ: وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِ عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ زِيَادٍ الَّذِي خَرَجَ لَصَدِّ الحُسَيْنِ بنِ عَلِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ دُخُولِ الكُوفَةِ، وَكَانَتْ فَاجِعَةُ كَرْبُلاءَ. وَقَدْ قَتَلَهُ المُخْتَارُ الثَّقَفِيُّ عِنْدَمَا سَيْطَرَ عَلَى العِرَاقِ.

٣ - مُحَمَّدُ: وَقُتِلَ فِي مَعْرَكَةِ دَيْرِ الجَمَاجِمِ، قَتَلَهُ الحَجَّاجُ بنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ. وَأُمُّهُمَا مَاوِيَةُ بِنْتُ قَيْسٍ الكِنْدِيَّةُ.

٤ - عَامِرُ.

٥ - إسْحَاقُ الأَصْغَرُ.

٦ - إسْمَاعِيلُ. وَأُمُّهُمْ أُمُّ عَامِرٍ بنتُ عَمْرٍو من بَهْرَاءَ.

٧ - إبْرَاهِيمُ.

٨ - مُوسَى. وَأُمُّهُمَا زَبَدُ البَكْرِيَّةُ.

٩ - عَبْدُ اللَّهِ الأَكْبَرُ: وَأُمُّهُ سَلْمَى التَغْلِبِيَّةُ.

١٠ - مُصْعَبُ: وَأُمُّهُ خَوْلَةُ التَغْلِبِيَّةُ.

١١ - عَبْدُاللَّهِ الأَصْغَرُ.

١٢ - بُجَيْرُ: وَهُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ. وَأُمُّهُمَا أُمُّ هِلاَلٍ بنتُ رَبِيعٍ المَذْحِجِيَّةُ.

١٣ - عُمَيْرُ الأَكْبَرُ: وَقَدْ تُوُفِّيَ قَبْلَ أَبِيهِ. وَأُمُّهُ أُمُّ حَكِيمٍ الكِنَانِيَّةُ.

١٤ ـ عُمَيْرُ الأَصْغَرُ.
١٥ ـ عَمْرُو.
١٦ ـ عِمْرَانُ. وَأُمُّهُمْ سَلْمَى بِنْتَ خَصَفَةَ.
١٧ ـ صَالِحُ: وَأُمُّهُ طَيِّبَةُ.
١٨ ـ عُثْمَانُ: وَأُمُّهُ أُمُّ حُجَيْرٍ.

وَكَانَ لَهُ مِنَ البَنَاتِ ثَمَانِي عَشَرَةَ بِنْتاً أَيْضاً وَهُنَّ:

١ ـ أُمُّ الحَكَمِ: وَأُمُّهَا ابْنَةُ شِهَابِ الزُّهْرِيَّةُ.
٢ ـ حَفْصَةُ.
٣ ـ أُمُّ القَاسِمِ.
٤ ـ أُمُّ كُلْثُومٍ. وَأُمُّهُنَّ مَاوِيَةُ بِنْتُ قَيْسٍ الكِنْدِيَّةُ.
٥ ـ أُمُّ عِمْرَانَ: وَأُمُّهَا أُمُّ عَامِرٍ بِنْتُ عَمْرٍو مِنْ بَهْرَاءَ.
٦ ـ أُمُّ الحَكَمِ الصُّغْرَى.
٧ ـ أُمُّ عَمْرٍو.
٨ ـ هِنْدُ.
٩ ـ أُمُّ الزُّبَيْرِ.
١٠ ـ أُمُّ مُوسَى. وَأُمُّهُنَّ زَبَدُ البَكْرِيَّةُ.
١١ ـ حَمِيدَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ هِلَالٍ بِنْتُ رَبِيعٍ المَذْحِجِيَّةُ.
١٢ ـ حَمْنَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ حَكِيمٍ الكِنَانِيَّةُ.

١٣ ـ أُمُّ عَمْرٍو.
١٤ ـ أُمُّ أَيُّوبَ.
١٥ ـ أُمُّ إسْحَاقَ. وَأُمُّهُنَّ سَلْمَى بِنْتُ خَصَفَةَ.
١٦ ـ رَمْلَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ حُجَيْرٍ.
١٧ ـ عُمَيْرَةُ: وَهِيَ العَمْيَاءُ. وَأُمُّهَا أُمُّ وَلَدٍ، وَتَزَوَّجَهَا سُهَيْلُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ.
١٨ ـ عَائِشَةُ: وَأُمُّهَا أُمُّ وَلَدٍ.

إخْوَتُهُ:

وَمِنْ إخْوَتِهِ المَعْرُوفِينَ.

١ ـ عُمَيْرٌ: شَقِيقُ سَعْدٍ، وَأَصْغَرُ مِنْهُ بِسِتَّةَ عَشَرَ عَاماً، أَسْلَمَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، وَلَم يَتَجَاوَزِ الحَادِيَةَ عَشَرَة، وَهَاجَرَ مَعَ أَخِيهِ سَعْدٍ، وآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمْرِو بنِ مُعَاذٍ أَخِي سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ. شَهِدَ عُمَيْرٌ بَدْرَاً، وَعِنْدَمَا اسْتَعْرَضَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ أَخَذَ يَتَوَارَى فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ سَعْدٌ: مَا لَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: إنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدَّنِي، وَأَنَا أُحِبُّ الخُرُوجَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُنِي الشَّهَادَةَ. فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

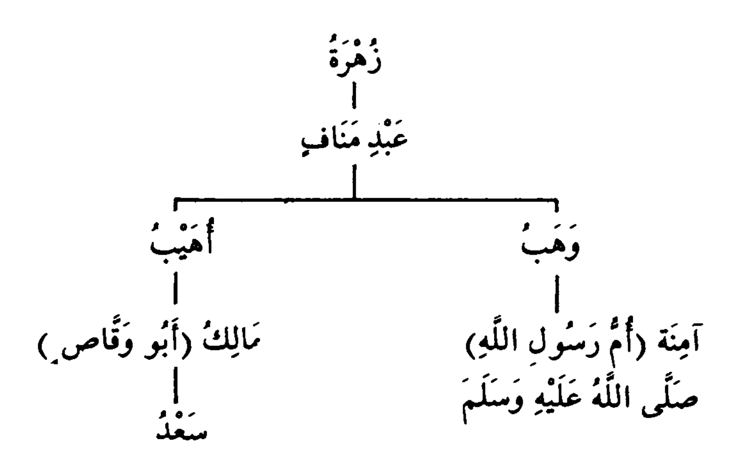
وَسَلَّمَ، فَاسْتَصْغَرَهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ، فَبَكَى عُمَيْرٌ فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَكَانَ سَعْدٌ يَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ. فَقُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ ابنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً، قَتَلَهُ عَمْرُو بنُ عَبْدوُدٍّ.

٢ - عُتْبَةُ: وَهُوَ أَسَنُّ مِنْ سَعْدٍ، وَشَهِدَ المَعَارِكَ مَعَ المُشْرِكِينَ، وَرَمَى يَوْمَ أُحُدٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ اليُمْنَى السُّفْلَى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وَحَرَصَ أَخُوهُ سَعْدٌ يَوْمَئِذٍ عَلَى قَتْلِهِ.

وَعُرِفَ مِنْ أَبْنَاءِ عُتْبَةَ هَاشِمٌ، وَقَدْ وُلِدَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَهِدَ اليَرْمُوكَ، وَذَهَبَتْ عَيْنُهُ يَوْمَئِذٍ، وَشَهِدَ فُتوحَ الشَّامِ، وَكَانَ بِجَانِبِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يَحْمِلُ رَايَتَهُ يَوْمَ صِفِّينَ، فَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ، وَكَانَ طَوِيلاً مَوْصُوفاً بِالشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ، وَيُعْرَفُ بِـ (المِرْقَالِ).

قَرَابَةُ سَعْدٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إِنَّ آمِنَةَ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ بَنِي زُهْرَةَ قَوْمِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَبِي وَقَّاصٍ (مَالِكٍ) وَالِدِ سَعْدٍ.



إِسْلاَمُ سَعْدٍ

وُلِدَ سَعْدُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَوَالَيْ السَّنَةِ الثَّلاثِينَ قَبْلَ الهِجْرَةِ فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَقْرِيباً. وَكَانَ عُمْرُهُ يَوْمَ البِعْثَةِ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَاماً.

كَانَ عَلِيٌّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَكَذَلِكَ زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَؤُلاَءِ الاثْنَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَسْلَمَ أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دَعَا أَبُو بَكْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَعَبْدَ

الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، وَعُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامَ، وَسَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ فَاسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً، فَكَانَ هَؤُلاَءِ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ بالإسْلاَمِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا جَاءَهُ مِنَ اللَّهِ.

وَيَبْدُو - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ سَعْداً قَدْ أَجَابَ أَبَا بَكْرٍ فَوْراً عَلَى حِينَ أَمْهَلَهُ الآخَرُونَ حَتَّى الصَّبَاحِ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ سَعْدٍ نَفْسِهِ: مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ فِي اليَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ، وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَ لَيَالٍ وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلاَمِ[1].

وَتَقُولُ عَائِشَةُ بِنْتُ سَعْدٍ: مَكَثَ أَبِي يَوْماً إِلَى اللَّيْلِ وَإِنَّهُ لَثُلُثُ الإِسْلاَمِ.

وَيَبْدُو أَنَّ سَعْداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يَعُدُّ عَلِيّاً صَغِيراً بَعْدُ إِذْ لَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ، وَيَعُدُّ زَيْداً مَوْلَىً، أَمَّا خَدِيجَةُ فَهِيَ امْرَأَةٌ فَلَمْ يَبْقَ سِوَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَعْدٍ نَفْسِهِ. وَكَانَ عُمْرُ سَعْدٍ يَوْمَ أَسْلَمَ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَبْعَةَ عَشَرَ عَاماً، أَيَ فِي العَامِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري، وابن ماجه، والطبراني، وأبو نعيم، وابن سعد.

وَبقِيَتِ الدَّعْوَةُ سِرًّاً ثلاثَ سَنَوَاتٍ، وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا صَلُّوا خَرَجُوا إِلَى شِعَابِ مَكَّةَ فَاسْتَخْفَوْا بِصَلاَتِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، فَبَيْنَا سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مكَّةَ إذْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ نَفَرٌ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَنَاكَرُوهُمْ، وَعَابُوا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ حَتَّى قَاتَلُوهُمْ، فَأَخَذَتِ الحَمَاسَةُ سَعْداً، وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ على حَقٍّ، فَضَرَبَ رَجُلاً مِنَ المُشْرِكِينَ بِلِحى بعِيرٍ فَشَجَّهُ، فَكَانَ أَوَّلَ دَمٍ هُرِيقَ فِي الإِسْلاَمِ.

وَجَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالدَّعْوَةِ، وَوَقَفَتْ قُرَيْشٌ فِي وَجْهِهِ، وَأَذَاقَتْ مَنْ أَسْلَمَ مُرَّ العَذَابِ، فَمَاتَ مِنْهُمْ مَنْ مَاتَ، وَهَاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ هَرَباً بِدِينِهِ مَنْ سَمَحَتْ لَهُ ظُرُوفُهُ بالهِجْرَةِ، وَمَنْ بَقِيَ قُوطِعَ وَحُوصِرَ مَعَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ فِي شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى جَهِدَ المُؤْمِنُونَ مِنْ ضِيقِ الحِصَارِ، حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الخَبَطَ، وَوَرَقَ السَّمُرِ، حَتَّى إنَّ أَحَدَهُمْ لَيَصْنَعُ كَمَا تَصْنَعُ الشَّاةُ، وَكَانَ فِيهِمْ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: لَقَدْ جُعْتُ حَتَّى إِنِّي وَطِئْتُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى شَيْءٍ رَطْبٍ،

فَوضَعْتُهُ فِي فَمِي وَبَلَعْتُهُ، وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ إِلَى الآنَ. وَكَانُوا إِذَا قَدِمَتِ العِيرُ مَكَّةَ، وَأَتَى أَحَدُهُمُ السُّوقَ لِيَشْتَرِيَ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ لِعِيَالِهِ، يَقُومُ أَبُو لَهَبٍ عَدُوُّ اللَّهِ فَيَقُولُ: يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، غَالُوا عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ حَتَّى لاَ يُدْرِكُوا مَعَكُمْ شَيْئاً، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالِي وَوَفَاءَ ذِمَّتِي، فَأَنا ضَامِنٌ أَنْ لاَ خَسَارَ عَلَيْكُمْ. فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ فِي السِّلْعَةِ قِيمَتَهَا أَضْعَافاً، حَتَّى يَرْجِعَ المُسْلِمُ إِلَى أَطْفَالِهِ، وَهُمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الجُوعِ، وَلَيْسَ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ يُطْعِمُهُمْ بِهِ، وَيَغْدُو التُّجَّارُ عَلَى أَبِي لَهَبٍ فَيُرْبِحُهُمْ فِيمَا اشْتَرَوْا مِنَ الطَّعَامِ واللِّبَاسِ حَتَّى جَهِدَ المُسْلِمُونَ، وَمَنْ مَعَهُمْ جُوعاً وَعُرْيَاً.

وَرُوِيَ عَنْ سَعْدٍ أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتِ الآيَةُ ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ[2].

وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضاً أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِيَّ ﴿وَوَصَّيْنَا

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٢.

(٢) أخرجه مسلم، وابن ماجه، والنسائي، والحاكم، وابن حبان، والبيهقي.

الإِنْسَانَ بِوَالِـدَيْهِ حُسْنَـاً، وَإِنْ جَاهَـدَاكَ لِتُشْـرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْـمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَـا، إِلَـيَّ مَرْجِعُـكُمْ فَأُنَبِّئُـكُمْ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1]. قَالَ: كُنْتُ بَرّاً بِأُمِّي، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ قَالَتْ: يَا سَعْدُ، مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ أَحْدَثْتَ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا، أَوْ لاَ آكُلُ، وَلاَ أَشْرَبُ، حَتَّى أَمُوتَ، فَتُعَيَّرَ بِي، فَيُقَالُ: يَا قَاتِلَ أُمِّهِ، قُلْـتُ: لاَ تَفْعَلِـي يَا أُمَّـهْ، إِنِّـي لاَ أَدَعُ دِينـي هَذَا لِشَيْءٍ، فَمَكَثَـتْ يَوْمَـاً لاَ تَأْكُلُ وَلاَ تَشْـرَبُ وَلَيْلَـةً، فَأَصْبَحَـتْ وَقَـدْ جَهِدَتْ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ قُلْتُ: يَا أُمَّهْ تَعْلَمِينَ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَكِ مَائَةُ نَفْسٍ، فَخَرَجَتْ نَفْسَـاً نَفْسَـاً، مَا تَرَكْتُ دِينِـي. إِنْ شِئْتِ كُلِي أَوْ لاَ تَأْكُلِي. فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ أَكَلَتْ[2].

هِجْرَةُ سَعْدٍ

وَكَانَتِ الأَيَّامُ تَمُرُّ عَلَى المُسْـلِمِينَ فِي مَكَّةَ بَطِيئَـةً مُتَثَاقِلَـةً هَكَذَا يَرَوْنَهَا لِمَا كَانُـوا يُعَانُـونَ مِنْ حَرْبٍ نَفْسِيَّةٍ وَمِـنْ حَرْبٍ اقْتِصَادِيَّةٍ وَمِنْ أَذىً فِي أَبْدَانِهِمْ، وَمِنْ ظُلْمِ ذَوِيهِمْ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي حِمَىً أَوْ مَنْأَىً مِنْ ذَلِكَ لِوَضْعِهِ الاجْتِمَاعِيِّ أَوْ لأَنَّهُ فِي جِوَارِ أَحَدَ السَّادَةِ كَانَ قَلْبُهُ يَتَفَطَّرُ عَلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يَنَالُهُـمُ

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٨.

(٢) أخرجه الترمذي، وأبو داود، وأحمد وغيرهم.

الأَذَى فِي كُلِّ حِيْنٍ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ عَنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَا لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْهُمْ، وَقُرَيْشٌ سَائِرَةٌ فِي غَيِّهَا مُتَمَادِيَةٌ فِي بَاطِلِهَا لاَ تَعْرِفُ الرَّحْمَةَ، وَلاَ تَمَسُّ الشَّفَقَةُ قَلْبَ رَجُلٍ مِنْ كُبَرَائِهَا، فَقُلُوبُهُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً لاَ تَفْهَمُ مَعْنَى الإِنْسَانِيَّةِ وَلاَ تَنْطِقُ إِلاَّ مِنْ خِلاَلِ مَا تُفَكِّرُ فِيْهِ وَمَا تَرَى فِيْهِ مِنْ مَصْلَحَةٍ لَهَا.

وَجَاءَتْ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فَلَيَّنَ قُلُوبَ بَعْضِ أَهْلِ يَثْرِبَ فَدَانُوا بِالإِسْلاَمِ، وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِمَا جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ، وَفَتَحُوا قُلُوبَهُمْ وَصُدُورَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَمَدِينَتَهُمْ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ بِالإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَخَذَ مُسْلِمُو مَكَّةَ يَنْتَقِلُونَ إِلَى يَثْرِبَ الَّتِى غَدَتْ مَدِينَةَ الإِسْلاَمِ، يَنْتَقِلُونَ جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ إِلاَّ مَنْ حُبِسَ أَوْ فُتِنَ، وَالْتَقَى الإِخْوَةُ مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي المَدِينَةِ وَالأَحِبَّةُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ.

وَهَاجَرَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَهَاجَرَ مَعَهُ أَخُوهُ الصَّغِيرُ عُمَيْرُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَلَمْ يَتَجَاوَزِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ، وَنَزَلاَ فِي مَنْزِلٍ لأَخِيهِمَا عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ كَانَ بَنَاهُ فِي بَنِي

عَمْرِو بنِ عَوْفٍ وَحَائِطٍ لَهُ، وَكَانَ عُتْبَةُ أَصَابَ دَماً بِمَكَّةَ فَهَرَبَ وَنَزِلَ فِي بَنِي عَمْرِو بنِ عَوْفٍ وَذَلِكَ قَبْلَ يَوْمِ بُعَاثٍ. وَكَانَ ذَلِكَ خِطَّةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَمْرِ النُّزُولِ فِي دَارِ أَخِيهِمَا.

وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَبَيْنَ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ، كَمَا آخَى بَيْنَ عُمَيْرِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَبَيْنَ عَمْرِو بنِ مُعَاذٍ. وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آخَى بَيْنَ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَبَيْنَ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ.

مَعَ الجِهَادِ

أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَرْكَانَ دَوْلَةِ الإِسْلاَمِ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ آخَى بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَوَادَعَ اليَهُودَ. وَأَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ يَسْتَعِدُّ لِلْقِتَالِ الَّذِي لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ حَتَّى وَلَوْ سَكَنَ المُسْلِمُونَ وَانْصَرَفُوا فَإِنَّ الكُفْرَ لَنْ يَقْبَلَ وَلَنْ يَسْكُتَ عَنِ الحَقِّ بَلْ يَعْمَلُ لِدَحْضِهِ. وَكَانَ قَدْ أُذِنَ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالقِتَالِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ

يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[1].

أَخَذَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ بِتَجْرِيدِ الغَزَوَاتِ وَتَسْيِيرِ السَّرَايَا إلَى الجِهَاتِ الَّتِي سَتَكُونُ مَسْرَحاً لِلنِّزَالِ لِدِرَاسَةِ المَنْطِقَةِ وَمَعْرِفَةِ مَسَالِكِهَا والاتِّصَالِ بِأَصْحَابِهَا لَدَعْوَتِهِمْ وَالاتِّفَاقِ مَعَهُمْ أَوْ لِوُقُوفِهِمْ عَلَى الحِيَادِ عَلَى الأَقَلِّ عِنْدَمَا يَحْدُثُ اللِّقَاءُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ.

سَارَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَى وَدَّانَ غَازِياً، وَلَمَّا رَجَعَ إلَى المَدِينَةِ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَرْسَلَ سَرِيَّةً بِإمْرَةِ عُبَيْدَةَ بنِ الحَارِثِ، وَجَمِيعُ أَفْرَادِهَا مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَالْتَقَت بِجَمْعٍ كَبِيرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْدُثْ قِتَالٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، غَيْرَ أَنَّ سَعْداً قَدْ رَمَى يَوْمَئِذٍ بِسَهْمٍ، فَكَانَ أَوَّلَ سَهْمٍ رُمِيَ بِهِ فِي الإِسْلاَمِ. وَانْصَرَفَ القَوْمُ عَنْ القَوْمِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ حَامِيَةٌ، وَيَقُولُ

(١) سورة الحج الآيتان ٤٠ و ٤١.

سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاص ٍ فِي هَذَا :

أَلاَ هَلْ أَتَـى رَسُـولَ اللَّـهِ أَنِّي
حَمَيْتُ صَحَابَتِـي بِصُـدُورِ نَبْلِي
أَذُودُ بِهَـا أَوَائِلَهُـمْ ذِيَاداً
بِـكُلِّ حَزُونَـةٍ وَبِـكُلِّ سَهْلٍ
فَمَـا يَعْتَـدُّ رَامٍ فِي عَدُوٍّ
بِسَهْـمٍ يَا رَسُـولَ اللَّـهِ قَبْلِي
وَذَلِكَ أَنَّ دِينَـكَ دِينُ صِدْقٍ
وَذُو حَقٍّ أَتَيْتَ بِهِ عَدْلِ
يُنَجَّـى الْمُؤْمِنُـونَ بِهِ، وَيُجْزَى
بِـهِ الكُفَّـارُ عِنْـدَ مَقَـامٍ مَهْلِ
فَمَهْـلاً قَدْ غَوَيْتَ فَلاَ تَعِبْنِي
غَـوِيَّ الحَـيِّ وَيْحَـكَ يَابْـنَ جَهْلِ

وَكَانَ سَعْدُ أَيْضاً فِي عَدَادِ أَفْرَادِ السَّرِيَّةِ الَّتِي بَعَثَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِإِمْرَةِ حَمْزَةَبـنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ إِلَى سِيْفِ البَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ العِيصِ ، وَكَانَ عَدَدُهُـمْ ثَلاَثِينَ رَاكِباً، كُلُّهُمْ مِنَ المُهَاجِرِينَ، وَقَدِ انْطَلَقَتْ السَّرِيَّةُ لِمُوَاجَهَةِ أَبِي جَهْلٍ الَّذِي كَانَ مَعَهُ ثَلاَثُمائِةِ رَاكِبٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَلَمْ

يَقعْ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ قِتَالٌ إذْ حَجَزَ بَيْنَهُمَا مَجْدِيُّ بنُ عَمْرو الجُهَنِيُّ.

وَكَانَ سَعْدٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الغزَوَاتِ كُلِّهَا الَّتِي غزَاهَا الرَّسُولُ الكَرِيمُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ، فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ، فَظَهَرَتْ إمْكَانَاتُ سَعْدٍ الكَبِيرَةُ وَقُدْرَاتُهُ عَلَى القِتَالِ، وَهَذَا مَا خَوَّلَهُ أَنْ يُرْسِلَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى رَأْسِ سَرِيَّةٍ إلَى الخَرَّارِ، فَانْطَلَقَ إلَى وِجْهَتِهِ وَرَجَعَ وَلَمْ يَلْقَ كَيْداً.

وَسَارَ سَعْدٌ أَيْضاً فِي سَرِيَّةِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْشٍ الَّتِي بَعَثَهَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلَى نَخْلَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، غَيْرَ أَنَّ سَعْداً وَعُتْبَةَ بنَ غَزْوَانَ قَدْ أَضَلاَّ بَعِيراً كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ، فَتَخَلَّفَا عَنِ السَّرِيَّةِ فِي طَلَبِ البَعِيرِ. وَغَنِمَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ فِي أَحْدَاثِ السِّيرَةِ - عِيراً لِقُرَيْشٍ كَانَتْ تَحْمِلُ زَبِيباً وَأَدَماً وَأَسِيرَيْنِ، وَكَانَتْ هذِهِ أَوَّلَ غَنِيمَةٍ غَنِمَهَا المُسْلِمُونَ.

سَعْدٌ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ الكُبْرَى

انْتَهَتْ مَرْحَلَةُ دِرَاسَةِ الأَرْضِ وَالتَّعَرُّفِ عَلَيْهَا وَانْتَهَى مَعَهَا

الاتِّصَالُ بِالقَبَائِلِ وَرِجَالاَتِهَا الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي تِلْكَ النَّوَاحِي أَوِ انْتَهَتْ مَرْحَلَةُ الاسْتِعْدَادِ، فَكَانُوا بَعْدَهَا يُرِيدُونَ أَنْ يَجُرُّوا قُرَيْشاً إِلَى مَعْرَكَةٍ يَنْتَصِفُوا فِيهَا مِنْهُمْ، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾. وَتُرِيدُ قُرَيْشٌ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى التَّحَرُّشَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا المُسْلِمُونَ أَوِ الاسْتِفْزَازَاتِ وَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ القَضَاءُ بِضَرْبَةٍ قَاصِمَةٍ تُنْهِي الصِّرَاعَ وَتُفْنِي الجَمَاعَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ نِهَائِياً. وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى الَّتِي أَرَادَهَا اللَّهُ وَالَّتِي سَيَّرَ الفَرِيقَيْنِ إِلَيْهَا لِتَكُونَ النَّتِيجَةُ الَّتِي كَانَتْ فَلَقَدْ طَالَ بَغْيُ قُرَيْشٍ وَزَادَ طُغْيَانُهَا وَتَمَادِيهَا فِي غَيِّهَا.

بَدَأَتْ مَرْحَلَةُ المَعَارِكِ الكُبْرَى، المُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ نَشْرَ النُّورِ، وَبَسْطَ الخَيْرِ، وَإِشَاعَةَ العَدْلِ، وَإِحْقَاقَ الحَقِّ، وَقُرَيْشٌ وَمَنْ وَرَاءَهَا تَبْغِي بَقَاءَ سَيْطَرَةِ الظُّلْمِ، وَتَحَكُّمِ الظَّالِمِينَ، وَاسْتِمْرَارِ الحَيَاةِ وَسْطَ دَيَاجِيرِ الظَّلاَمِ لِتَحْقِيقِ الشَّهْوَةِ وَإِطْلاَقِ عِنَانِ النَّفْسِ فِي الغَطْرَسَةِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينَ مِنْ مَوَالِي وَضُعَفَاءَ وَبَائِسِينَ.

وَنَدَبَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ إِلَى قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ الآيِبَةِ مِنَ الشَّامِ وَالَّتِي

يَنْتَظِرُونَ عَوْدَتَهَا بَعْدَ أَنْ فَاتَتْهُمْ فِي ذَهَابِهَا. فَخَفَّ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَثَقُلَ بَعْضُهُمْ، وَمَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَثْقُلُوا لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَلْقَى حَرْباً، وَإِنَّمَا خَرَجَ لِلْعِيرِ، إِذْ قَالَ لَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ يُنْفِلُكُمُوهَا».

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ السَّبْتِ لِثِنْتَي عَشَرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَخَرَجَ سَعْدٌ وَأَخُوهُ عُمَيْرٌ مَعَ مَنْ كَانَ قَدْ خَرَجَ. يَقُولُ سَعْدٌ: رَأَيْتُ أَخِي عُمَيْرَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ قَبْلَ أَنْ يَعْرِضَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِلْخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ يَتَوَارَى فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَرَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَسْتَصْغِرَنِي فَيَرُدَّنِي، وَأَنَا أُحِبُّ الْخُرُوجَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ، قَالَ: فَعُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَصْغَرَهُ فَقَالَ: ارْجِعْ، فَبَكَى عُمَيْرٌ فَأَجَازَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ سَعْدٌ: فَكُنْتُ أَعْقِدُ لَهُ حَمَائِلَ سَيْفِهِ مِنْ صِغَرِهِ فَقُتِلَ بِبَدْرٍ، وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشَرَةَ سَنَةً، قَتَلَهُ عَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدٍّ.

وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى بَدْرٍ أَرْسَلَ ثَلاَثَةً مِنَ الشَّبَابِ الأَشِدَّاءِ الشُّجْعَانِ إِلَى مَاءِ بَدْرٍ يَلْتَمِسُونَ الخَبَرَ لَهُ عَلَيْهِ، أَرْسَلَ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزُّبَيْرَ بنَ العَوَّامِ، وَسَعْدَ بنَ أَبِي وَقَّاصٍ مَعَ نفرٍ آخَرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَوَجَدُوا عَبْدَيْنِ لِقُرَيْشٍ مَعَ إِبِلٍ يَسْتَقُونَ عَلَيْهَا المَاءَ، فَقَبَضُوا عَلَيْهِمَا وَحَمَلُوهُمَا إِلَى مُعَسْكَرِ المُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُمَا وَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَائِمٌ يُصَلِّي. فَقَالاَ: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِنَ المَاءِ. فَكَرِهَ القَوْمُ خَبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لأَبِي سُفْيَانَ، فَضَرَبُوهُمَا، فَقَالاَ: نَحْنُ لأَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا. فَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ صَلاَتِهِ، قَالَ: إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ! أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟ قَالاَ: هُمْ وَاللَّهِ وَرَاءَ هَذَا الكَثِيبِ الَّذِي تَرَى بِالعُدْوَةِ القُصْوَى. فَقَالَ لَهُمَا: كَمِ القَوْمُ؟ قَالاَ: كَثِيرٌ.

قَالَ: مَا عِدَّتُهُمْ؟ قَالاَ: لاَ نَدْرِي.

قَالَ: كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟ قَالاَ: يَوْماً تِسْعاً وَيَوْماً عَشْراً.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: القَوْمُ بَيْنَ التِّسْعِمَائةِ وَالألْفِ.

ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ القَوْمِ ؟. قَالاَ: عُتْبَةُ بنُ رَبيعَةَ، وَشَيْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ و...

فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَذِهِ مَكَّةُ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاَذَ كَبِدِهَا.

وَدَارَتْ مَعْرَكَةُ بَدْرٍ، وَجَالَ البَاطِلُ فِيهَا جَوْلَتَهُ وَانْدَحَرَ صَاغِرَاً مُتَرَاجِعَاً، وَدَالَتْ دَوْلَتُهُ، وَانْتَصَرَ الحَقُّ، وَارْتَفَعَتْ رَايَتُهُ، وَقَدَّمَ أَبْنَاءُ الإِسْلاَمِ فِيهَا أَنْوَاعَاً مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ، وَمِنْهُمْ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ الَّذِي صَرَعَ حُذَيْفَةَ بنَ أَبِي حُذَيْفَةَ بنِ المُغِيرَةِ المَخْزُومِيَّ، وَقَتَلَ نُبَيْهَ بنَ الحَجَّاجِ بنِ عَامِرٍ السَّهْمِيَّ.

وَسَعْدُ فِي قِتَالِهِ هَادِيءٌ قَلِيلُ الحَرَكَةِ قَلَّمَا يَرْتَفِعُ صَوْتُهُ وَإِذَا ارْتَفَعَ فَبِالتَّكْبِيرِ أَوْ لِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ. وَقَدْ عُرِفَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ، وَمَهَارَتِهِ فِي الرَّمْيِ، وَكَانَتِ الأَبْطَالُ تَخْشَاهُ وَتَخَافُ لِقَاءَهُ.

فِي مَعْرَكَةِ أُحُدٍ

عَادَ المُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ الثَّأْرَ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالنَّيْلَ مِنْهُمْ وَالقَضَاءَ عَلَيْهِمْ إِنْ تَمَكَّنُوا فَأَخْزَاهُمُ اللَّهُ وَلَمْ يَنَالُوا خَيْراً. وَخَالَفَ المُسْلِمُونَ فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ دَرْساً فَتَرَاجَعُوا بَعْدَ نَصْرٍ وَأُصِيبَ مِنْهُمْ مَنْ أُصِيبَ.

وَرَمَى سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دُونَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ سَعْدُ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنَاوِلُنِي النَّبْلَ وَهُوَ يَقُولُ: ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، حَتَّى إِنَّهُ لَيُنَاوِلُنِي السَّهْمَ مَا لَهُ نَصْلُ، فَيَقُول: ارْمِ بِهِ.

وَيَقُولُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَفْدِي أَحَداً بِأَبَوَيْهِ إِلاَّ سَعْداً، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: ارْمِ سَعْدُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي.

وَقَتَلَ سَعْدُ يَوْمَ أُحُدٍ حَامِلَ لِوَاءِ المُشْرِكِينَ أَبَا سَعِيدِ بنَ أَبِي طَلْحَةَ، كَمَا قَتَلَ عَدَداً مِنَ الكُفَّارِ يَوْمَذَاكَ.

وَعِنْدَمَا انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ رَمَى عُتْبَةُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَسَرَ رُبَاعِيَّتَهُ اليُمْنَى

السُّفْلَى، وَجَرَحَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بنَ شِهَابٍ الزُّهْرِيَّ شَجَّهُ فِي جَبْهَتِهِ، وَأَنَّ ابنَ قَمِيئَةَ جَرَحَ وَجْنَتَهُ، فَدَخَلَتْ حَلْقَتَانِ مِنْ حَلَقِ المِغْفَرِ فِي وَجْنَتِهِ، وَوَقَعَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي حُفْرَةٍ مِنَ الحُفَرِ الَّتِي عَمِلَهَا أَبُو عَامِرٍ لِيَقَعَ فِيْهَا المُسْلِمُونَ، وَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. . . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَمَا غُسِلَ عَنْ وَجْهِهِ الدَمُ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ نَبِيِّهِ».

وَكَانَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ قَطُّ كَحِرْصِي عَلَى قَتْلِ عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَإِنْ كَانَ مَا عَلِمْتُ لَسِيءَ الخُلُقِ مُبْغَضاً فِي قَوْمِهِ، وَلَقَدْ كَفَانِي مِنْهُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ نَبِيِّهِ».

وَحَضَرَ سَعْدُ المَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَّةِ كَانَ مِنَ الشُّهُودِ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَى الصُّلْحِ، وَفِي فَتْحِ مَكَّةَ كَانَ يَحْمِلُ إِحْدَى رَايَاتِ المُهَاجِرِينَ الثَّلاَثِ.

وَقَدْ بَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالْجَنَّةِ، وَتُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

مَعَ الصِّدِّيقِ

كَانَ سَعْدُ بِجَانِبِ الصِّدِّيقِ يُنَفِّذُ رَأْيَهُ، وَيَدْعَمُهُ فِي المَوَاقِفِ، وَيُشِيرُ عَلَيْهِ، ؛ إذ كَانَتِ السِّيَاسَةُ العَامَّةُ أَنْ يَبْقَى كِبَارُ الصَّحَابَةِ فِي المَدِينَةِ حُمَاةً لَهَا، وَسَنَداً لِلْخَلِيفَةِ، وَلِيَكُونُوا قُدْوَةً لِلنَّاشِئِينَ فِيهَا وَالقَادِمِينَ إِلَيْهَا.

وَلاَ يَخْرُجُ هَؤُلاَءِ الصَّحَابَةُ إلاَّ لِقِيَادَةِ الجُيُوشِ فَقَدْ خَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ، وَعَمْرُو بنُ العَاصِ، وَيَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ إِلَى الشَّامِ أُمَرَاءَ وَخَرَجَ مَعَهُمْ مِن الصَّحَابَةِ الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَسَعِيدُ بنُ زَيْدٍ، وَمُعَاذُ بنُ جَبَلٍ وَغَيْرِهُمْ. وَخَرَجَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ إِلَى العِرَاقِ وَمَعَهُ عَدَدٌ أَيْضاً مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَلَكِنْ لَمْ تُنَفَّذْ هَذِهِ السِّيَاسَةُ بِدِقَّةٍ أَيَّامَ الصِّدِّيقِ لأَنَّ الصَّحَابَةَ لاَ يَزَالُونَ يُشَكِّلُونَ النِّسْبَةَ الكَبِيرَةَ فِي أَعْدَادِ المُجَاهِدِينَ لِقُرْبِ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ أَبْنَائِهِمْ قَدْ بَلَغُوا بَعْدُ مَرْحَلَةَ الجِهَادِ، كَمَا لَمْ تَكُنْ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ قَد امْتَدَّتْ خَارِجَ حُدُودِ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ لِيَرْفِدَهَا جُمُوعٌ جَدِيدَةٌ مِنَ المُجَاهِدِينَ.

وَكَانَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ قَدْ بَقِيَ فِي المَدِينَةِ مَعَ مَنْ بَقِيَ

أَمْثَالِ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ، وَعُثْمَانَ بن عَفَّانَ، وَعَلِيٍّ بن أَبي طَالِبٍ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ، وَطَلْحَةَ بن عُبَيْدِ اللَّهِ وَغَيْرِهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً.

مَعَ الفَارُوق

تَوَسَّعَتِ الدَّوْلَةُ أَيَّامَ الفَارُوقِ وَرَفَدَتْهَا عَنَاصِرُ جَدِيدَةٌ انْخَرَطَ أَبْنَاؤُهَا فِي صُفُوفِ المُجَاهِدِينَ، وَوَفَدَتْ عَلَى المَدِينَةِ جُمُوعٌ غَرِيبَةٌ عَنْهَا وَهَذَا مَا اسْتَدْعَى العَمَلَ على تَنْفِيذِ سِيَاسَةِ إبْقَاءِ كِبَارِ الصَّحَابَةِ فِي قَاعِدَةِ الدَّوْلَةِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى أَسَاتِذَةِ المَدْرَسَةِ المُحَمَّدِيَّةِ فِي دَاخِلِ مَدِينَتِهِمْ لِتَلْقِينِ الجِيلِ النَّاشِيءِ وَتَرْبِيَةِ العُنْصُرِ القَادِمِ عَلَى السُّلوكِ الإِسْلاَمِيِّ بِأَخْذِهِ مِمَّنْ أَخَذَهُ مِنْ نَبْعِهِ الأَوَّلِ صَافِياً عَذْباً. غَيْرَ أَنَّ القِيَادَةَ العَامَّةَ لِلْجُيُوشِ تَحْتَاجُ إِلَى مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ المَدِينَةُ لِذَا فَقَدْ كَانَ الخَلِيفَةُ الفَارُوقُ يُعْطِي تِلْكَ القِيَادَةَ إلى أولَئِكَ الصَّحَابَةِ أَوْ إِلَى الَّذِينَ نَهَلُوا مِنْهُمْ وَتَمَيَّزُوا بِإِمْكَانَاتِهِمْ. كَمَا خَصَّ أُولَئِكَ وَأَمْثَالِهِمْ بِإِدَارَةِ الوِلاَيَاتِ، فَقَدْ كَانَ لِلسَّبْقِ فِي الإِسْلاَمِ وَشُهُودِ بَدْرٍ وَلِلْقُدْرَاتِ الخَاصَّةِ مِيزَةٌ لِتَسَلُّمِ المَنَاصِبِ وَالقِيَادَةِ وَالإِدَارَةِ عِنْدَ الفَارُوقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَعَنْ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ.

لَمَّا بَلَغَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ نَبأُ مَعْرَكَةِ الجِسْرِ، وَمَقْتَلُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَمَا أَصَابَ المُسْلِمِينَ فِيهَا مِنْ مِحْنَةٍ، وَانْتِظَامُ شَمْلِ الفُرْسِ، وَاجْتِمَاعُ أَمْرِهِمْ عَلَى يَزْدَجِرْدَ الَّذِي أَقَامُوهُ مِنْ بَيْتِ المُلْكِ، وَنَقْضُ أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالعِرَاقِ عُهُودَهُمْ، وَنَبْذُهُمُ المَوَاثِيقَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، وَإِيذَاءُ المُسْلِمِينَ وَإِخْرَاجُ العُمَّالِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ لِذَا أَخَذَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ يَحُثُّ النَّاسَ وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ العِرَاقِ.

وَرَكِبَ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ المُحَرَّمِ مِنَ السَّنَةِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ فِي الجُيُوشِ مِنَ المَدِينَةِ، فَنَزَلَ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ «صِرَارُ» فَعَسْكَرَ بِهِ عَازِماً عَلَى غَزْوِ العِرَاقِ بِنَفْسِهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى المَدِينَةِ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ وَسَادَاتِ الصَّحَابَةِ. ثُمَّ عَقَدَ مَجْلِساً لاسْتِشَارَةِ الصَّحَابَةِ فِيمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَنُودِيَ: إنَّ الصَّلاَةَ جَامِعَةٌ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَى عَلِيٍّ فَقَدِمَ مِنَ المَدِينَةِ، ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَوَافَقُوهُ جَمِيعاً عَلَى الذَّهَابِ إِلَى العِرَاقِ إِلاَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ عَوْفٍ فَإِنَّه قَالَ لَهُ: إِنِّي أَخْشَى إِنْ كُسِرْتَ أَنْ يَضْعُفَ المُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَبْعَثَ رَجُلاً وَتَرْجِعَ أَنْتَ إِلَى المَدِينَةِ، فَأَرْفَأَ[1] عُمَرُ وَالنَّاسُ

---

(١) فأرفأ: فمال إلى.

عِنْدَ ذَلِكَ وَاسْتَصْوَبُوا رَأْيَ ابنِ عَوْفٍ. فَقَالَ عُمَرُ: فَمَنْ تَرى أَنْ نَبْعَثَ إِلَى العِرَاقِ؟ فَقَالَ: قَدْ وَجَدْتُهُ. قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَال: الأَسَدُ فِي بَرَاثِنِهِ سَعْدُ بنُ مَالِكٍ الزُّهْرِيُّ.

فَاسْتَجَادَ قَوْلَهُ وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ فَأَمَّرَهُ عَلَى العِرَاقِ وَأَوْصَاهُ فَقَالَ: يَا سَعْدُ سَعْدُ بنُ وُهَيْبٍ لاَ يَغُرَّنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ: خَالُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَاحِبُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمْحُو السَّيِّءَ بِالسَّيِّءِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّءَ بِالحَسَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ، فَالنَّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ، يَتَفَاضَلُونَ بِالعَافِيَةِ، وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ، فَانْظُرِ الأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُنْذُ بُعِثَ إِلَى اليَوْمِ الَّذِي فَارَقَنَا عَلَيْهِ فَالْزَمْهُ، فَإِنَّهُ الأَمْرُ. هٰذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ، إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ وَكُنْتَ مِنَ الخَاسِرِينَ.

وَلَمَّا أَرَادَ فِرَاقَهُ قَالَ لَهُ: إِنَّكَ سَتَقْدُمُ عَلَى أَمْرٍ شَدِيدٍ، فَالصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ، يَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ: فِي طَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَإِنَّمَا طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الآخِرَةِ، وَإِنَّمَا عِصْيَانُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الآخِرَةِ،

وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا العَلاَنِيَّةُ؛ فَأَمَّا العَلاَنِيَّةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الحَقِّ سَوَاءً، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ، وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ، وَمِنْ مَحَبَّةِ النَّاسِ. فَلاَ تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْداً حَبَّبَهُ، وَإِذَا بَغَّضَ عَبْداً بَغَّضَهُ فَاعْتَبِرْ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ.

سَارَ سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نَحْوَ العِرَاقِ فِي أَرْبَعَةِ آلاَفٍ، ثَلاَثَةُ آلاَفٍ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، وَأَلْفٌ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ، وَشَيَّعَهُمْ عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِن صِرَارٍ إِلَى الأَعْوَصِ [1]، وَقَامَ عُمَرُ فِي النَّاسِ هُنَالِكَ خَطِيباً فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثَالَ، وَصَرَّفَ لَكُمُ القَوْلَ لِتَحْيَا القُلُوبُ فَإِنَّ القُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يُحْيِيهَا اللَّهُ، مَنْ عَلِمَ شَيْئاً فَلْيَنْتَفِعْ بِهِ، وَإِنَّ لِلْعَدْلِ أَمَارَاتٌ وَتَبَاشِيرٌ، فَأَمَّا الأَمَارَاتُ فَالحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ وَالهِينُ واللِّينُ، وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالرَّحْمَةُ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ بَاباً، وَيَسَّرَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، فَبَابُ العَدْلِ الاعْتِبَارُ، وَمِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ والاعْتِبَارُ ذِكْرُ المَوْتِ بِتَذَكُّرِ الأَمْوَاتِ وَالاسْتِعْدَادِ لَهُ بِتَقْدِيمِ الأَعْمَالِ، وَالزُّهْدُ أَخْذُ الحَقِّ مِنْ كُلِّ

---

(١) الأعوص: موضع على خمسة كيلومترات من المدينة على طريق العراق.

أَحَدٍ قِبَلِهِ حَقٌّ، وَالاكْتِفَاءُ بِمَا يَكْفِيهِ مِنَ الكَفَافِ، فَإِنْ لَمْ يَكْفِهِ الكَفَافُ لَمْ يُغْنِهِ شَيْءٌ. إنِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلَيْس بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَلْزَمَنِي دَفْعَ الدُّعَاءِ عَنْهُ، فَانْهُوا شِكَاتَكُمْ إلَيْنَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِلَى مَنْ يُبَلِّغُنَاهَا نَأْخُذْ لَهُ الحَقَّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ.

سَارَ سَعْدٌ بِمَنْ مَعَهُ إلَى العِرَاقِ، وَرَجَعَ عُمَرُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ إلَى المَدِينَةِ. وَوَصَلَ سَعْدٌ إلَى نَهْرِ (زَرُودَ) وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُثَنَّى بن حَارِثَةَ إلاَّ اليَسِيرَ، غَيْرَ أَنَّ المُثَنَّى قَدْ تُوفِّي إذِ انْتَقَضَ عَلَيْهِ جُرْحُهُ، وَمَاتَ مِنْ أَثَرِهِ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الجَيْشِ بَشِيرَ بنَ الخَصَاصِيَّةَ.

وَصَلَ سَعْدٌ إلَى مَكَانِ تَجَمُّعِ جُيُوشِ المُسْلِمِينَ، فَتَرَحَّمَ عَلَى المُثَنَّى، وَتَزَوَّجَ امْرَأَتَهُ سَلْمَى بِنْتَ خَصَفَةَ. وَبَدَأَ عُمَرُ يُرْسِلُ إلَيْهِ النَّجْدَاتِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَدَيْهِ ثَلاَثُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، كَمَا كَانَ يُرَاسِلُهُ وَيُوَجِّهُهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ رَبِيعَةَ البَاهِلِيُّ ذُو النُّورِ عَلَى القَضَاءِ إضَافَةً إلَى الأَقْبَاضِ (مَا يُقْبَضُ مِنَ الغَنَائِمِ) وَقِسْمَةِ الفَيْءِ، وَأَنْ يَكُونَ سَلْمَانُ الفَارِسيُّ دَاعِيَةَ النَّاسِ، وَزِيَادُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ الكَاتِبَ. وَكَانَ فِي جَيْشِ سَعْدٍ ثَلاَثَمائَةٌ وَبِضْعَةَ عَشَرَ صَحَابِيّاً، مِنْهُمْ

بِضْعَـةٌ وَسَبْعُـونَ بَدْرِيّاً، وَكَانَ فِيْهِ سَبْعُمائـةٌ مِنْ أَبْنَـاءِ الصَّحَابَةِ[1].

وَكَتَبَ عُمَرُ إلَى سَعْدٍ يَأْمُرُهُ بِالمُبَادَرَةِ إلَى القَادِسِيَّةِ، وَكَانَ مِمَّا كَتَبَ لَهُ: أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الحَجَرِ وَالمَدَرِ، وَأَنْ يَأْخُذَ الطُّرُقَ وَالمَسَالِكَ عَلَى فَارِسَ، وَأَنْ يَبْدُرَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالشِّدَّةِ، وَأَلاَّ يَهُولَهُ كَثْرَةُ عَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَدَعَـةٌ مَكَرَةٌ، وَإِنْ أَنْتُمْ صَبَرْتُمْ وَأَحْسَنْتُمْ وَنَوَيْتُمُ الأَمَانَـةَ ـ رَجَـوْتُ أَنْ تُنْصَـرُوا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ شَمْلُهُمْ أَبَداً ـ إلاَّ أَنْ يَجْتَمِعُوا وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ. وَإِنْ كَانَتِ الأُخْرَى فَارْجِعُوا إلَى مَا وَرَاءَكُمْ حَتَّى تَصِلُوا إلَى الحَجَرِ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَأُ، وَإِنَّهُمْ عَنْهُ أَجْبَـنُ وَبِهِ أَجْهَلُ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالفَتْحِ عَلَيْهِمْ وَيَرُدَّ لَكُمُ الكَرَّةَ.

وَأَمَرَ عُمَرُ سَعْداً بِمُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَمَوْعِظَةِ جَيْشِـهِ، وَأَمَرَهُـمْ بِالنِّيَّةِ الحَسَنَةِ وَالصَّبْرِ، فَإِنَّ النَّصْـرَ يَأْتِـي مِنَ اللَّـهِ عَلَـى قَدْرِ النِّيَةِ، وَالأَجْرَ عَلَى قَدْرِ الحِسْبَةِ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ، وَأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّهِ العَلِيِّ العَظِيمِ. وَقَالَ لَهُ: اكْتُـبْ إلَـيَّ بِجَمِيعِ أَحْوَالِـكُمْ وَتَفَاصِيلِهَـا، وَكَيْفَ تَنْزِلُونَ؟ وَأَيْنَ يَكُونَ مِنْـكُمْ عَدُوُّكُمْ؟ وَاجْعَلْنِـي بِكُتُبِـكَ إلَـيَّ كَأَنِّي

(١) أنظر البداية والنهاية لابن كثير.

أَنْظُـرُ إِلَيْكُمْ، وَاجْعَلْنِـي مِنْ أَمْـرِكُمْ عَلَـى الجَلِيَّةِ، وَخَفِ اللَّهَ وَارْجُهُ وَلاَ تُدِلّ بِشَيْءٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَوَكَّلَ لِهَذَا الأَمْرِ بِمَا لاَ خُلْفَ لَهُ، فَاحْـذَرْ أَنْ يَصْرِفَـهُ عَنْـكَ وَيَسْتَبْـدِلَ بِكُمْ غَيْرَكُمْ.

فَكَتَبَ سَعْدُ إِلى عُمَرَ يَصِفُ إِلَيْهِ كَيْفِيَّةَ تِلْكَ المَنَازِلِ وَالأَرَاضِي بِحَيْثُ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهَا، وَكَتَـبَ إِلَيْهِ يُخْبِـرُهُ بِأَنَّ الفُـرْسَ قَدْ جَرَّدُوا لِحَرْبِهِ رُسْتُمَ وَأَمْثَالَهُ، فَهُمْ يَطْلُبُونَنَا وَنَحْنُ نَطْلُبُهُمْ، وَأَمْرُ اللَّهِ بَعْدُ مَاضٍ، وَقَضَاؤُهُ مُسَلَّمُ، اِلَى مَا قَدَّرَ لَنَا وَعَلَيْنَا، فَنَسْأَلُ اللَّـهَ خَيْرَ القَضَاءِ وَخَيْرَ القَدَرِ فِي عَافِيَةٍ.

وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى سَعْدٍ: قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ، فَإِذَا لَقِيتَ عُدُوَّكَ، وَمَنَحَكَ اللَّهُ أَدْبَارَهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ أَلْقَى فِي رَوْعِي أَنَّكُمْ سَتَهْزِمُونَهُمْ فَلاَ تَشُكَّنَّ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا هَزَمْتَهُمْ فَلاَ تَنْزِعْ عَنْهُمْ حَتَى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ المَدَائِنَ، فَإِنَّهُ خَرَابُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَجَعَلَ عُمَرُ يَدْعُو لِسَعْدٍ خَاصَّةً وَلَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ عَامَّةً.

وَسَارَ سَعْدُ حَتَّى بَلَغَ العُـذَيْبَ فَاعْتَـرَضَ لِلْمُسْـلِمِينَ جَيْشٌ لِلْفُرْسِ مَعَ (شِيرَزَادْ بن آرَاذِيْهِ) فَغَنِمَ المُسْلِمُونَ مِمَّـا مَعَـهُ شَيْئَاً كَثِيراً، وَوَقَعَ مِنْهُمْ مَوْقِعَاً كَبِيراً، فَخَمَّسَهـا سَعْـدُ وَقَسَّـمَ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهَا فِي النَّاسِ، وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ بِذَلِكَ وَفَرِحُوا، وَتَفَاءَلُوا، وَأَفْـرَدَ سَعْـدُ سَرِيَّةً تَكُونُ حِيَاطَـةً لِمَـنْ مَعَهُـمْ مِنَ

الحَرِيمِ ، وَعَلَى هَذِهِ السَّرِيَّةِ غَالِبُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيُّ.

القَادِسِيَّةُ :

ثُمَّ سَارَ سَعْدُ فَنزَلَ القَادِسِيَّةَ ، وَبَثَّ سَرَايَاهُ ، وَأَقَامَ بِهَا شَهْراً لَمْ يَرَ أَحَداً مِنَ الفُرْسِ ، فَكَتَبَ إلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، وَالسَّرَايَا تَأْتِي بِالميرَةِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَعَجَّتْ رَعَايَا الفُرْسِ مِنْ أَطْرَافِ بِلاَدِهِمْ إلَى (يَزْدَجِرْدَ) مِنَ الَّذِينَ يَلْقَوْنَ مِنَ المُسْلِمِينَ مِنَ النَّهْبِ وَالسَّبْيِ . وَقَالُوا : إنْ لَمْ تُنْجِدُونا أَعْطَيْنَا مَا بِأَيْدِينَا إلَى المُسْلِمِينَ وَسَلَّمْنَا إلَيْهِمُ الحُصُونَ . وَاجْتَمَعَ رَأْيُ الفُرْسِ عَلَى إرْسَالِ (رُسْتُمْ) إلَيْهِمْ ، فَبَعَثَ إلَيْهِ (يَزْدَجِرْدُ) فَأَمَّرَهُ عَلَى الجَيْشِ فَاسْتَعْفَى (رُستُمُ) مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ : إنَّ هَذَا لَيْسَ بِرأْيٍ فِي الحَرْبِ ، إنَّ إرْسَالَ الجُيُوشِ بَعْدَ الجُيُوشِ أَشَدُّ عَلَى العَرَبِ مِنْ أَنْ يَكْسِرُوا جَيْشاً كَثِيفاً مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَأَبَى المَلِكُ إلاَّ ذَلِكَ ، فَتَجَهَّزَ (رُسْتُمُ) لِلْخُرُوجِ .

بَعَثَ سَعْدُ كَاشِفاً إلَى (الحِيرَةِ) وَإلَى (صَلُوبَا) ، فَأَتَاهُ الخَبَرُ بِأَنَّ المَلِكَ قَدْ أَمَّرَ عَلَى الحَرْبِ (رُسْتُمَ بنَ الفَرَّخْزَاذَ الأَرْمَنِيَّ) وَأَمَدَّهُ بِالْعَسْكَرِ فَكَتَبَ سَعْدُ إلَى عُمَرَ بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ إلَيْهِ عُمَرُ : لاَ يَكْرُبَنَّكَ مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ ، وَلاَ مَا يَأْتُونَكَ بِهِ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَابْعَثْ إلَى (رُسْتُمَ) رِجَالاً مِنْ

أَهْلِ النَّظَرِ وَالرَّأْيِ وَالجَلَدِ يَدْعُونَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دُعَاءَهُمْ تَوْهِيناً لَهُمْ، وَفَلْجاً عَلَيْهِمْ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

وَلَمَّا اقْتَرَبَ رُسْتُمْ بِجُيُوشِهِ وَعَسْكَرَ بِـ (سَابَاطَ) كَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يَقُولُ: إِنَّ (رُسْتُم) قَدْ عَسْكَرَ بِـ (سَابَاطَ) وَجَرَّ الخُيُولَ وَالفِيلَةَ وَزَحَفَ عَلَيْنَا بِهَا، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَهَمَّ عِنْدِي، وَلاَ أَكْثَرَ ذِكْراً مِنِّي لِمَا أَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ الاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ.

وَعَبَّأَ رُسْتُمُ فَجَعَلَ عَلَى المُقَدِّمَةِ ـ وَهِيَ أَرْبَعُونَ أَلْفاً ـ الجَالِنُوسَ، وَعَلى المَيْمَنَةِ الهُرْمُزَانُ، وَعَلَى المَيْسَرَةِ مِهْرَانُ بنُ بَهْرَامٍ وَذَلِكَ سِتُّونَ أَلْفاً، وَعَلَى السَّاقَةِ البَيْرُزَانُ فِي عِشْرِينَ أَلْفاً، فَالجَيْشُ كُلُّه مِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً، وَيَتْبَعُهَا ثَمانُونَ أَلْفاً. وَكَانَ مَعَ الجَيْشِ ثَلاَثَةٌ وَثَلاَثُونَ فِيلاً، مِنْهَا فِيلٌ أَبْيَضُ كَانَ لِـ (سَابُورَ)، فَهُوَ أَعْظَمُهَا وَأَقْدَمُهَا، وَكَانَتِ الفِيلَةُ تَأْلَفُهُ.

ثُمَّ بَعَثَ سَعْدٌ جَمَاعَةً مِنَ السَّادَاتِ؛ مِنْهُمُ النُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ، وَفُرَاتُ بنُ حَيَّانَ، وَحَنْظَلَةُ بنُ الرَّبِيعِ التَّمِيمِيُّ، وَعُطَارِدُ بنُ حَاجِبٍ، وَالأَشْعَثُ بنُ قَيْسٍ، وَالمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةِ، وَعَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبٍ يَدْعُونَ رُسْتُمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ

وَجلَّ. فَقَالَ لَهُمْ رُستُمُ: مَا أَقْدَمَكُمْ؟ فَقَالُوا: جِئْنَا لِمَوْعُودِ اللَّهِ إِيَّانَا، أَخْذِ بِلاَدِكُمْ وَسَبْيِ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِكُمْ، فَنَحْنُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ذَلِكَ. وَقَدْ رَأَى رُسْتُمُ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ مَلَكاً نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَخَتَمَ عَلَى سِلاَحِ الفُرْسِ كُلِّهِ، وَدَفَعَهُ إِلى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى عُمَرَ.

وَيَبْدُو أَنَّ رُسْتُمَ طَاوَلَ سَعْدَاً فِي اللِّقَاءِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ خُرُوجِهِ مِنَ المَدَائِنِ وَمُلْتَقَاهُ سَعْدَاً بِالقَادِسِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، كُلُّ ذَلِكَ لَعَلَّهُ يُضْجِرُ سَعْدَاً وَمَنْ مَعَهُ، وَلَوْلاَ أَنَّ المَلِكَ اسْتَعْجَلَهُ مَا الْتَقَاهُ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ غَلَبَةِ المُسْلِمِينَ لَهُمْ، وَنَصْرِهِمْ عَلَيْهِمْ، لِمَا رَآهُ فِي مَنَامِهِ، وَلِمَا يَتَوَسَّمُهُ، وَلِمَا سَمِعَ مِنْهُمْ، وَلِمَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ النُّجُومِ الَّذِي يَعْتَقِدُ صِحَّتَهُ فِي نَفْسِهِ، لِمَا لَهُ مِنَ المُمَارَسَةِ لِهَذَا الفَنِّ.

وَلَمَّا تَوَاجَهَ الجَيْشَانِ بَعَثَ رُسْتُمُ إِلَى سَعْدٍ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِرَجُلٍ عَاقِلٍ عَالِمٍ بِمَا أَسْأَلُهُ عَنْهُ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جَعَلَ رُسْتُمُ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكُمْ جِيرَانُنَا وَكُنَّا نُحْسِنُ إِلَيْكُمْ وَنَكُفُّ الأَذَى عَنْكُمْ، فَارْجِعُوا إِلَى بِلاَدِكُمْ وَلاَ نَمْنَعُ تِجَارَتَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ إِلى بِلاَدِنَا. فَقَالَ

لَهُ المُغِيرَةُ: إنَّا لَيْسَ طَلَبُنَا الدُّنْيَا، وَإنَّما هَمُّنَا وَطَلَبُنَا الآخِرَةُ، وَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ إلَيْنَا رَسُولاً قَالَ لَهُ: إنِّي قَدْ سَلَّطْتُ هَذِهِ الطَّائِفَةَ عَلَى مَنْ لَمْ يَدِنْ بِدِينِي، فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلُ لَهُمُ الغَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ. وَهُوَ دِينُ الحَقِّ لاَ يَرْغَبُ عَنْهُ أَحَدٌ إلاَّ ذَلَّ، وَلاَ يَعْتَصِمُ بِهِ إلاَّ عَزَّ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمْ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: أَمَا عَمُودُهُ الَّذِي لاَ يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْهُ إلاَّ بِهِ، فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، والإقْرَارُ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضاً؟ قَالَ: وَإِخْرَاجُ النَّاسِ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضاً، وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضاً؟ قَالَ: وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَحَوَّاءَ، فَهُمْ إخْوَةٌ لأِبٍ وَأُمٍّ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضاً. ثُمَّ قَالَ رُسْتُم: أَرَأَيْتَ إنْ دَخَلْنَا فِي دِينِكُمْ أَتَرْجِعُونَ عَنْ بِلاَدِنَا؟ قَالَ: إيْ وَاللَّهِ ثُمَّ لاَ نَقْرَبُ بِلاَدَكُمْ إلاَّ فِي تِجَارَةٍ أَوْ حَاجَةٍ. قَالَ: وَحَسَنٌ أَيْضاً. وَلَمَّا خَرَجَ المُغِيرَةُ مِنْ عِنْدِهِ ذَاكَرَ رُسْتُمُ رُؤَسَاءَ قَوْمِهِ فِي الإِسْلاَمِ فَأَنِفُوا ذَلِكَ وَأَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهِ، قَبَّحَهُمُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُمْ وَقَدْ فَعَلَ.

ثُمَّ بَعَثَ إلَيْهِ سَعْدٌ رَسُولاً آخَرَ ـ بِطَلَبِهِ ـ وَهُوَ رِبْعِيُّ بنُ عَامِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ زَيَّنُوا مَجْلِسَهُ بِالنَّمَارِقِ المُذَهَّبَةِ

وَالزَّرَابِيِّ وَالحَرِيرِ، وَأَظْهَرَ اليَوَاقِيتَ وَالْلآلِىءَ الثَّمِينَةَ، وَالزِّينَةَ العَظِيمَةَ، وَعَلَيْهِ تَاجُهُ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَمْتِعَةِ الثَّمِينَةِ، وَقَدْ جَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ. وَدَخَلَ رِبْعِيٌّ بِثِيَابٍ صَفِيقَةٍ وَسَيْفٍ وَتُرْسٍ، وَفَرَسٍ قَصِيرَةٍ، وَلَمْ يَزَلْ رَاكِبَهَا حَتَّى دَاسَ بِهَا عَلَى طَرَفِ البِسَاطِ، ثُمَّ نَزَلَ وَرَبَطَهَا بِبَعْضِ تِلْكَ الوَسَائِدِ، وَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ سِلاَحُهُ وَدِرْعُهُ، وَبَيْضَتُهُ عَلَى رَأْسِهِ. فَقَالُوا لَهُ: ضَعْ سِلاَحَكَ، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكُمْ فَأَضَعَ سِلاَحِي بِأَمْرِكُمْ، وَإِنَّما جِئْتُكُمْ حِينَ دَعَوْتُمُونِي، فَإِنْ تَرَكْتُمُونِي هَكَذَا وَإِلاَّ رَجَعْتُ. فَقَالَ رُسْتُمُ: ائذَنُوا لَهُ، فَأَقْبَلَ يَتَوكَّأُ عَلَى رِمْحِهِ فَوْقَ النَّمَارِقِ، فَخَرَقَ عَامَّتَهَا، فَقَالُوا لَهُ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُ ابْتَعَثَنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ العِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الإِسْلاَمِ، فَأَرْسَلَنَا بِدِينِهِ إِلَى خَلْقِهِ لِنَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَبِلَ ذَلِكَ مِنَّا قَبِلْنَا مِنْهُ وَرَجَعْنَا عَنْهُ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَداً حَتَّى نُفْضِيَ إِلَى مَوْعُودِ اللَّهِ. قَالُوا: وَمَا مَوْعُودُ اللَّهِ؟ قَالَ: الجَنَّةُ لِمَنْ مَاتَ عَلَى قِتَالِ مَنْ أَبَى، وَالظَّفَرُ لِمَنْ بَقِيَ. فَقَالَ رُسْتُمُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تُؤَخِّرُوا هَذَا الأَمْرَ حَتَّى نَنْظُرَ فِيهِ وَتَنْظُرُوا؟ قَالَ: نَعَمْ! كَمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟ يَوْماً أَوْ يَوْمَيْنِ؟ قَالَ: لاَ، بَل حَتَّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأْيِنَا وَرُؤَسَاءَ قَوْمِنَا. فَقَالَ:

مَاسَنَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ نُؤَخِّرَ الأَعْدَاءَ عِنْدَ اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثٍ، فَانْظُرْ فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِهِمْ وَاخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ بَعْدَ الأَجَلِ ، فَقَالَ: أَسَيِّدُهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ: لاَ، وَلَكِنِ المُسْلِمُونَ كَالجَسَدِ الوَاحِدِ يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ عَلَى أَعْلاَهُمْ. فَاجْتَمَعَ رُسْتُمُ بِرُؤَسَاءِ قَوْمِهِ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتُمْ قَطُّ أَعَزَّ وَأَرْجَحَ مِنْ كَلاَمِ هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَقَالُوا: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَمِيلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَتَدَعْ دِينَكَ إِلَى هَذَا الكَلْبِ؛ أَمَا تَرَى إِلَى ثِيَابِهِ؟ فَقَالَ: وَيْلَكُمْ لاَ تَنْظُرُوا إِلَى الثِّيَابِ، وَانْظُرُوا إِلَى الكَلاَمِ وَالرَّأْيِ وَالسِّيرَةِ. إِنَّ العَرَبَ يَسْتَخِفُّونَ بِالثِّيَابِ وَالمَأْكَلِ وَيَصُونُونَ الأَحْسَابَ.

ثُمَّ بَعَثُوا فِي اليَوْمِ الثَّانِي يَطْلُبُونَ رَجُلاً، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ حُذَيْفَةَ بنَ مِحْصَنٍ فَتَكَلَّمَ نَحْوَ مَا قَال رِبْعِيٌّ. وَفِي اليَوْمِ الثَّالِثِ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ فَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ حَسَنٍ طَوِيلٍ. قَالَ فِيهِ رُسْتُمُ لِلْمُغِيرَةِ: إِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي دُخُولِ أَرْضِنَا كَمَثَلِ الذُّبَابِ رَأَى العَسَلَ، فَقَالَ: مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْهِ وَلَهُ دِرْهَمَانِ؟ فَلَمَّا سَقَطَ عَلَيْهِ غَرِقَ فِيهِ، فَجَعَلَ يَطْلُبُ الخَلاَصَ فَلاَ يَجِدُهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ: مَنْ يُخَلِّصُنِي وَلَه أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ؟ وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ ثَعْلَبٍ ضَعِيفٍ دَخَلَ حَجْرَاً فِي كَرْمٍ ، فَلَمَّا رَآهُ صَاحِبُ الكَرْمِ

ضَعِيفاً رَحِمَهُ فتَرَكَهُ، فَلَمَّا سَمِنَ أَفْسَدَ شَيْئاً كَثِيراً، فَجَاءَ بِجَيْشِهِ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِغِلْمَانِهِ، فَذَهَبَ لِيَخْرُجَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِسِمَنِهِ فَضَرَبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ، فَهكَذَا تَخْرُجُونَ مِنْ بِلاَدِنَا. ثُمَّ اسْتَشَاطَ غَضَباً، وَأَقْسَمَ بِالشَّمْسِ لأَقْتُلَنَّكُمْ غَداً. فَقَالَ المُغِيرَةُ: سَتَعْلَمُ. ثُمَّ قَالَ رُسْتُمُ لِلْمُغِيرَةِ: قَدْ أَمَرْتُ لَكُمْ بِكِسْوَةٍ، وَلأَمِيرِكُمْ بِأَلْفِ دِينَارٍ وَكِسْوَةٍ وَمَرْكُوبٍ وَتَنْصَرِفُونَ عَنَّا، فَقَالَ المُغِيرَةُ: أَبَعْدَ أَنْ أَوْهَنَّا مُلْكَكُمْ وَضَعَّفْنَا عِزَّكُمْ، وَلَنَا مُدَّةٌ فِي بِلاَدِكُمْ، وَنَأْخُذُ الجِزْيَةَ مِنْكُمْ عَنْ يَدٍ وَأَنْتُمْ صَاغِرُونَ، وَسَتَصِيرُونَ لَنَا عَبِيداً عَلَى رَغْمِكُمْ؟ فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ اسْتَشَاطَ غَضَباً.

وَكَانَ سَعْدٌ قَدْ بَعَثَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى كِسْرَى يَدْعُونَهُ إِلَى اللَّهِ، فَاسْتَأْذَنُوا عَلَى كِسْرَى فَأَذِنَ لَهُمْ، وَخَرَجَ أَهْلُ البَلَدِ يَنْظُرُونَ إِلَى أَشْكَالِهِمْ وَأَرْدِيَتِهِمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ وَسِيَاطِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَالنِّعَالِ فِي أَرْجُلِهِمْ، وَخُيُولِهِمُ الضَّعِيفَةِ، وَخَبْطِهَا الأَرْضَ بِأَرْجُلِهَا. وَجَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا غَايَةَ العَجَبِ؛ كَيْفَ مِثْلُ هَؤُلاَءِ يَقْهَرُونَ جُيُوشَهُمْ مَعَ كَثْرَةِ عَدَدِهَا وَعُدَدِهَا؟ وَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا عَلَى المَلِكِ يَزْدَجِرْدَ أَذِنَ لَهُمْ وَأَجْلَسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ مُتَكَبِّراً قَلِيلَ الأَدَبِ، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ مَلاَبِسِهِمْ هَذِهِ

مَا اسْمُهَا؟ عنِ الأَرْدِيَةِ، وَالنِّعَالِ، وَالسِّيَاطِ، ثُمَّ كُلَّمَا قَالُوا لَهُ شَيْئاً عَنْ ذَلِكَ تَفَاءلَ فَرَدَّ اللَّهُ فَأْلَهُ عَلَى رَأْسِهِ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مَا الَّذِي أَقْدَمَكُمْ هَذِهِ البِلاَدِ؟ أَظَنَنْتُمْ أَنَّا لَمَّا تَشَاغَلْنَا بِأَنْفُسِنَا اجْتَرَأْتُمْ عَلَيْنَا؟ فَقَالَ لَهُ النُّعْمَانُ بنُ مُقَرِّنٍ: إنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً يَدُلُّنَا عَلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُنَا بِهِ، وَيُعَرِّفُنَا الشَّرَّ وَيَنْهَانَا عَنْهُ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَيْ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. فَلَمْ يَدْعُ إِلَى ذَلِكَ قَبِيلَةً إِلاَّ صَارُوا فِرْقَتَيْنِ؛ فِرْقَةٌ تُقَارِبُهُ وَفِرْقَةٌ تُبَاعِدُهُ، وَلاَ يَدْخُلُ مَعَهُ فِي دِينِهِ إِلاَّ الخَوَاصُّ، فَمَكَثَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ أُمِرَ أَنْ يَنْهَدَ إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ العَرَبِ وَيَبْدَأُ بِهِمْ، فَفَعَلَ فَدَخَلُوا مَعَهُ جَمِيعاً عَلَى وَجْهَيْنِ: مَكْرُوهٌ عَلَيْهِ فَاغْتَبَطَ، وَطَائِعٌ إِيَّاهُ فَازْدَادَ، فَعَرَفْنَا جَمِيعاً فَضْلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ العَدَاوَةِ وَالضِّيقِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَبْدَأَ بِمَنْ يَلِينَا مِنَ الأُمَمِ فَنَدْعُوهُمْ إِلَى الإِنْصَافِ، فَنَحْنُ نَدْعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا - وَهُوَ دِينُ الإِسْلاَمِ - دِينٌ حَسَّنَ الحَسَنَ وَقَبَّحَ القَبِيحَ كُلَّهُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَمْرٌ مِنَ الشَّرِّ هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخِرِ شَرٍّ مِنْهُ الجَزَاءُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالمُنَاجَزَةُ، وَإِنْ أَجَبْتُمْ إِلى دِينِنَا خَلَّفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَمْنَاكُمْ عَلَيْهِ عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ، وَنَرْجِعَ عَنْكُمْ، وَشَأْنُكُمْ وَبِلاَدَكُمْ. وَإِنْ أَتَيْتُمُونَا بِالجَزَاءِ قَبِلْنَا وَمَنَعْنَاكُمْ، وَإِلاَّ قَاتَلْنَاكُمْ.

فَتكَلَّمَ يَزْدَجِرْدُ فقَالَ: إنِّي لاَ أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أُمَّةً كَانَتْ أَشْقَى وَلاَ أَقَلَّ عَدَداً وَلاَ أَسْوَأَ ذَاتَ بَيْنٍ مِنْكُمْ، قَدْ كُنَّا نُوكِلُ بِكُمْ قُرَى الضَّوَاحِي لِيَكْفُونَنَـا إيّاكُمْ، لاَ تَغْـزُونَ فَارِسَ وَلاَ تَطْـمَعُونَ أَنْ تَقُومُوا لَهُمْ. فَإِنْ كَانَ عَدَدُكُمْ كَثُرَ فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مِنَّـا، وَإِنْ كَانَ الجَهْدُ دَعَاكُمْ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوتَـاً إِلَـى خَصْبِكُمْ وَأَكْرَمْنَـا وُجُوهَكُمْ وَكَسَوْنَاكُمْ، وَمَلَّكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكاً يَرْفِقُ بِكُمْ.

فَقَـامَ المُغِيرَةُ بـنُ شُعْبَـةٍ فقَـالَ: أيُّهَـا المَلِكُ، إنَّ هَؤُلاَءِ رُؤُوسُ العَـرَبِ وَوُجُوهُهُـمْ، وَهُـمْ أَشْـرَافٌ يَسْـتَحْيُونَ مِنَ الأَشْرَافِ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ الأَشْرَافَ الأَشْرَافُ، وَيُعَظِّمُ حُقُـوقَ الأَشْرَافِ الأَشْرَافُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا أَرْسَلُوا بِهِ جَمَعُوهُ لَكَ، وَلاَ كُلُّ مَا تَكَلَّمْـتَ بِهِ أَجَابُـوكَ عَلَيْهِ، وَقَـدْ أَحْسَنُـوا وَلاَ يَحْسُـنُ بِمِثْلِهِمْ إلاَّ ذَلِكَ، فَجَاوِبْنِي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أُبَلِّغُكَ وَيَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ. إنَّكَ وَصَفْتَنَا صِفَةً لَمْ تَكُنْ بِهَـا عَالِمـاً، فَأَمَّـا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الحَالِ فَمَا كَانَ أَسْوَأَ حَالاً مِنَّا، وَأَمَّا جُوعُنَا فَلَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ الجُوعَ، كُنَّا نَأْكُلُ الخَنَافِسَ وَالجُعْلاَنَ وَالعَقَـارِبَ وَالحَيَّاتِ، وَنَـرَى ذَلِكَ طَعَامَنَـا. وَأَمَّـا المَنَـازِلُ فَهِـيَ ظَهْـرُ الأَرْضِ، وَلاَ نَلْبِسُ إلاَّ مَا غَزَلْنَا مِنْ أَوْبَـارِ الإِبِـلِ وَأَشْعَـارِ الغَنَمِ. دِينُنَا أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضاً، وَأَنْ يَبْغِيَ بَعْضُنَا عَلَـى

يَعْضٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَدْفِنَ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ. وَكَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلاً مَعْرُوفاً ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَنَعْـرِفُ وَجْهَـهُ وَمَوْلِـدَهُ ، فَأَرْضُهُ خَيْرُ أَرْضِنَا ، وَحَسَبُهُ خَيْرُ أَحْسَابِنَا ، وَبَيْتُهُ أَعْظَمُ بُيُوتِنَا ، وَقَبِيلَتُهُ خَيْرُ قَبَائِلِنَا ، وَهُوَ بِنَفْسِهِ كَانَ خَيْرَنَا فِي الحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا أَصْدَقَنَا وَأَحْلَمَنَا ، فَدَعَانَا إِلَى أَمْرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَـدٌ. أَوَّلُ تِرْبٍ كَانَ لَهُ الخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ وَقُلْنَا ، وَصَدَّقَ وَكَذَّبْنَا ، وَزَادَ وَنَقَصْنَا ، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً إِلاَّ كَانَ ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصْدِيقَ لَهُ وَاتِّبَاعَهُ ، فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ العَالَمِينَ ، فَمَا قَالَ لَنَا فَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ ، وَمَا أَمَرَنَا فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَنَا : إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ : إِنِّي أَنَا اللَّهُ وَحْدِي لاَ شَرِيكَ لِي ، كُنْتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهِيَ ، وَأَنَا خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيَّ يَصِيرُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَإِنَّ رَحْمَتِي أَدْرَكَتْكُمْ فَبَعَثْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا الرَّجُلَ لأَدُلَّكُمْ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِى أُنْجِيكُمْ بِهَا بَعْدَ المَوْتِ مِنْ عَذَابِي ، وَلأُحِلَّكُمْ دَارِي دَارَ السَّلاَمِ . فَنَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنَّـهُ جَاءَ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ الحَقِّ ، وَقَالَ : مَنْ تَابَعَكُمْ عَلَى هَذَا فَلَهُ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ أَبَى فَاعْرِضُوا عَلَيْهِ الجِزْيَةَ ، ثُمَّ امْنَعُوهُ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَـكُمْ ، وَمَـنْ أَبَـى فَقَاتِلُـوهُ فَأَنَـا الحَـكَمُ بَيْنَكُمْ ، فَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ أَدْخَلْتُهُ جَنَّتِي ، وَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَعْقَبْتُهُ

النَّصرَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُ. فَاخْتَرْ إنْ شِئْتَ الجِزْيَةَ وَأَنْتَ صَاغِرٌ، وَإِنْ شِئْتَ فَالسَّيْفُ، أَوْ تُسْلِمُ فَتُنْجِي نَفْسَكَ.

فَقَالَ يَزْدَجِرْدُ: أَتَستَقْبِلُنِي بِمِثْلِ هَذَا؟ فَقَالَ: مَا اسْتَقْبَلْتُ إلاَّ مَنْ كَلَّمَنِي، وَلَوْ كَلَّمَنِي غَيْرُكَ لَمْ أَسْتَقْبِلْكَ بِهِ. فَقَالَ: لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمْ، وَلاَ شَيْءَ لَكُمْ عِنْدِي. وَقَالَ: ائْتُونِ بِوِقْرٍ مِنْ تُرَابٍ فَاحْمِلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَؤُلاَءِ، ثُمَّ سُوقُوهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ أَبْيَاتِ المَدَائِنِ. ارْجِعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ فَأَعْلِمُوهُ إِنِّي مُرْسِلٌ إِلَيْهِ رُسْتُمَ حَتَّى يَدْفُنَهُ وَجُنْدَهُ فِي خَنْدَقِ القَادِسِيَّةِ، وَيُنَكِّلَ بِهِ وَبِكُمْ مَنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ أُورِدُهُ بِلاَدَكُمْ حَتَّى أَشْغَلَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِأَشَدَّ مِمَّا نَالَكُمْ مِنْ (سَابُورَ).

ثُمَّ قَالَ: مَنْ أَشْرَفُكُمْ؟ فَسَكَتَ القَوْمُ، فَقَالَ عَاصِمُ بنُ عَمْرٍو ـ وَافْتَأَتَ لِيَأْخُذَ التُّرَابَ ـ أَنَا أَشْرَفُهُمْ، أَنَا سَيِّدُ هَؤُلاَءِ فَحَمِّلْنِيهِ، فَقَالَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَحَمَّلَهُ عَلَى عُنُقِهِ فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الإيوانِ وَالدَّارِ حَتَّى أَتَى رَاحِلَتَهُ فَحَمَلَهُ عَلَيْهَا ثُمَّ انْجَذَبَ فِي السَّيْرِ لِيَأْتِيَ بِهِ سَعْداً، وَسَبَقَ عَاصِمُ القَوْمَ فَمَرَّ بِبَابِ قُدَيْسٍ فَطَوَاهُ وَقَالَ: بَشِّرُوا الأَمِيرَ بِالظَّفَرِ، ظَفِرْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ مَضَى حَتَّى جَعَلَ التُّرَابَ فِي الحَجْرِ ثُمَّ رَجَعَ فَدَخَلَ عَلَى سَعْدٍ فَأَخْبَرَهُ الخَبَرَ. فَقَالَ: أَبْشِرُوا فَقَدْ وَاللَّهِ

أَعْطَانَا اللَّهُ مَقَالِيدَ مُلْكِهِمْ، وَتَفَاءَلُوا بِذَلِكَ أَخْذَ بِلاَدِهِمْ.

وَلَمَّا رَجَعَ رُسْتُمُ إِلَى المَلِكِ يَسْأَلُـهُ عَنْ حَالِ مَنْ رَأَى مِنَ المُسْلِمِينَ، ذَكَرَ لَهُ عَقْلَهُمْ وَفَصَاحَتِهِمْ وَحِدَّةِ جَوَابِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَرُومُونَ أَمْراً يُوشِكُ أَنْ يُدْرِكُوهُ. وَذَكَرَ مَا أَمَرَ بِهِ أَشْرَفَهُمْ مِنَ حَمْلِ التُّرَابِ، وَأَنَّـهُ اسْتَحْمَـقَ أَشْرَفَهُـمْ فِي حَمْلِـهِ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، وَلَوْ شَاءَ اتَّقَى بِغَيْرِهِ وَأَنَا لاَ أَشْعُرُ. فَقَالَ لَهُ رُسْتُمُ: إِنَّهُ لَيْسَ أَحْمَقَ، وَلَيْسَ هُوَ بِأَشْرَفِهِمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَدِيَ قَوْمَهُ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ ذَهَبُوا بِمَفَاتِيحَ أَرْضِنَا، وَكَانَ رُسْتُمُ مُنَجِّماً. ثُمَّ أَرْسَلَ رَجُلاً وَرَاءَهُمْ وَقَالَ: إِنْ أَدْرَكَ التُّرَابَ فَرَدَّهُ تَدَارَكْنَا أَمْرَنَا، وَإِنْ ذَهَبُوا بِهِ إِلَى أَمِيرِهِمْ غَلَبُونَا عَلَى أَرْضِنَا. فَسَاقَ وَرَاءَهُمْ فَلَمْ يُدْرِكْهُمْ، بَلْ سَبَقُوهُ إِلَى سَعْدٍ بِالتُّـرَابِ. وَسَـاءَ ذَلِكَ فَارِسُ، وَغَضِبُـوا مِنْ ذَلِكَ أَشَـدَّ الغَضَـبِ، وَاسْتَهْجَنُوا رَأْيَ المَلِكِ.

المَعْرَكَةُ:

لَمَّا طَلَبَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةِ مِنْ رُسْتُمَ وَمَنْ مَعَهُ دَفْعَ الجِزْيَةِ بَعْدَ أَنْ أَبَوْا الإِسْلاَمَ نَخَرُوا وَصَاحُوا وَقَالُوا: لاَ صُلْـحَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمْ. فَقَالَ المُغِيرَةُ: تَعْبُرُونَ إِلَيْنَا أَوْ نَعْبُـرُ إِلَيْكُمْ؟ فَقَـالَ

رُسْتُمُ بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ. فَاسْتَأْخَرَ المُسْلِمُونَ حَتَّى عَبَرُوا فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ صَلَّى بِالنَّاسِ الظُّهْرَ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ فَوَعَظَهُمْ وَحَثَّهُمْ، وَتَلاَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وَقَرَأَ القُرَّاءُ آيَاتِ الجِهَادِ وَسُوَرِهِ، ثُمَّ كَبَّرَ سَعْدُ أَرْبَعاً، ثُمَّ حَمَلُوا بَعْدَ الرَّابِعَةِ فَاقْتَتَلُوا حَتَّى كَانَ اللَّيْلُ فَتَحَاجَزُوا.

وَكَانَ سَعْدُ قَدْ أَصَابَهُ عِرْقُ النِّسَا، وَدَمَامِلُ فِي جَسَدِهِ، فَهُوَ لاَ يَسْتَطِيعُ الرُّكُوبَ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي قَصْرٍ مُتَكِىءُعَلَى صَدْرِهِ فَوْقَ وِسَادَةٍ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الجَيْشِ وَيُدَبِّرُ أَمْرَهُ، وَقَدْ جَعَلَ أَمْرَ الحَرْبِ إِلَى خَالِدِ بنِ عُرْفُطَةَ، وَجَعَلَ عَلَى المَيْمَنَةِ جَرِيرَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ البُجَلِيَّ، وَعَلَى المَيْسَرَةِ قَيْسَ بنَ مَكْشُوحٍ.

حَمَلَ أَصْحَابُ الفِيَلَةِ مِنَ الفُرْسِ عَلَى المُسْلِمِينَ فَفَرَّقُوا الكَتَائِبَ، وَأُصِيبَتِ الخُيُولُ بِالذُّعْرِ فَفَرَّتْ، وَصَمَدَ المُشَاةُ، وَفَزِعَتْ امْرَأَةُ سَعْدٍ وَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ خَصَفَةَ وَذَلِكَ عِنْدَمَا فَرَّتِ الخَيْلُ، وَقَالَتْ: وَامُثَنَّيَاهُ وَلاَ مُثَنَّى لِيَ اليَوْمَ، فَغَضِبَ سَعْدُ مِنْ ذَلِكَ وَلَطَمَ وَجْهَهَا، فَقَالَتْ: أَغِيرَةً وَجُبْناً؟

وَكَانَ فِي قَصْرِ سَعْدٍ رَجُلُ مَسْجُونُ عَلَى الشَّرَابِ كَانَ قَدْ حُدَّ

فِيْهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَأَمَرَ بِهِ سَعْدٌ فَقُيِّدَ وَأُودِعَ فِي القَصْرِ، فَلَمَّا رَأَى الخَيْلَ تَجُولُ حَوْلَ حِمَى القَصْرِ، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ الأَبْطَالِ قَالَ:

كَفَى حَزَناً أَنْ تُدْحَمَ الخَيْلُ بِالقَنَا
وَأُتْرَكَ مَشْدُوداً عَلَيَّ وِثَاقِيَا

إِذَا قُمْتُ عَنَّانِي الحَدِيدُ وَغُلِّقَتْ
مَصَارِيعُ مِنْ دُونِي تَصُمُّ المُنَادِيَا

وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ
وَقَدْ تَرَكُونِي مُفْرَداً لاَ أَخَا لِيَا

ثُمَّ سَأَلَ مِنْ (زَبْرَاءَ) أُمِّ سَعْدٍ أَنْ تُطْلِقَهُ وَتُعِيرَهُ فَرَسَ سَعْدٍ، وَحَلَفَ لَهَا أَنْ يَرْجِعَ آخِرَ النَّهَارِ فَيَضَعَ رِجْلَهُ فِي القَيْدِ، فَأَطْلَقَتْهُ، وَرَكِبَ فَرَسَ سَعْدٍ وَخَرَجَ فَقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً، وَجَعَلَ سَعْدٌ يَنْظُرُ إِلَى فَرَسِهِ فَيَعْرِفُهَا وَيُنْكِرُهَا، وَيُشَبِّهُهُ بِأَبِي مِحْجَنٍ الثَّقَفِيِّ وَلَكِنْ يَشُكُّ لِظَنِّهِ أَنَّهُ فِي القَصْرِ مُوثَقٌ. فَلَمَّا كَانَ آخِرَ النَّهَارِ رَجَعَ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي القَيْدِ، وَنَزَلَ سَعْدٌ فَوَجَدَ فَرَسَهُ يَعْرَقُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَذَكَرُوا لَهُ قِصَّةَ أَبِي مِحْجَنٍ، فَرَضِيَ عَنْهُ، وَأَطْلَقَهُ، وَقَدْ تَابَ وَأَقْلَعَ عَنْ شَرَابِهِ.

وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

نُقَاتِلُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ
وَسَعْدٌ بِبَابِ القَادِسِيَّةِ مُعْصَمُ
فَأُبْنَا وَقَدْ آمَتْ نِسَاءٌ كَثِيرَةٌ
وَنِسْوَةُ سَعْدٍ لَيْسَ فِيهِنَّ أَيِّمُ

فَيُقَالُ: إنَّ سَعْداً نَزَلَ إلَى النَّاسِ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ مِمَّا فِيْهِ مِن القُرُوحِ فِي فَخِذَيْهِ وَإلْيَتَيْه فَعذَرَهُ النَّاسُ. وَيُذْكَرُ أَنَّهُ دَعَا عَلَى قَائِلِ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ كَاذِباً، أَوْ قَالَ الَّذِي قَالَ رِيَاءً وَسُمْعَةً وَكَذِباً فَاقْطَعْ لِسَانَهُ وَيَدَهُ. فَجَاءَهُ سَهْمٌ وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فَوَقَعَ فِي لِسَانِهِ فَبَطَلَ شِقُّهُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى مَاتَ.

وَقَالَ جَرِيرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ البَجَلِيُّ:

أَنَا جَرِيرٌ كُنْيَتِي أَبُو عَمْرِو
قَدْ فَتَحَ اللَّهُ وَسَعْدٌ فِي القَصْرِ

فَأَشْرَفَ سَعْدٌ مِنْ قَصْرِهِ وَقَالَ:

وَمَا أَرْجُو بَجِيلَةَ غَيْرَ أَنِّي
أُؤَمِّلُ أَجْرَهَا يَوْمَ الحِسَابِ
فَقَدْ لَقِيَتْ خُيُولُهُمْ خُيُولاً
وَقَدْ وَقَعَ الفَوَارِسُ فِي الضِّرَابِ

وَقَــدْ دَلَفَــتْ بِعَرْصَتِهِــمْ خُيُولٌ
كَأَنَّ زُهَاءَهَــا إبِــلُ الجِرَابِ
فَلَــوْلاَ جَمْــعُ قَعْقَاعِ بــنِ عَمْروٍ
وَحَمَّــالِ لَلَجُّــوا فِي الرِّكَابِ
وَلَــوْلاَ ذَاكَ أَلْفَيْتُــمْ رِعَاعاً
تَسِيلُ جُمُوعُــكُمْ مِثْــلُ الذُّبَابِ

وَكَانَ اليَوْمُ الأَوَّلُ مِنْ مَعْــرَكَةِ القَــادِسِيَّةِ وَيُعْــرَفُ بِيَوْمِ (أَرْمَاتَ) قَاسِياً عَلَى المُسْلِمِينَ شَدِيدَ الوَطْأَةِ عَلَيْهِمْ، وَكَادَتْ تَفْنَى (بَجِيلَةُ)، وَصَرَخَ سَعْدٌ فِي قَبِيلَةِ (أَسَدٍ) لِتَدْعَمَ (بَجِيلَةَ) فَحمَلَ طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيْلِدٍ، وَحَمَّالُ بنُ مَالِكٍ، والرُّبَيلُ بنُ عَمْروٍ، وَغَالِبُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي كَتَائِبِهِمْ وَصَدُّوا الفُرْسَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَعَرَّضُوا لِهُجُومٍ عَنِيفٍ مِنْ قِبَلِ أَعْدَائِهِمْ الَّذِينَ رَأَوْا أَنَّ فيلَتَهُمْ لَمْ تَعُدْ تُغْنِ عَنْهُمْ، فَصَرَخَ سَعْدٌ فِي بَنِي تَمِيمٍ بَعْدَ أَنْ رَأَى هُجُومَ الفِيلَةِ عَلَى المَيْمَنَةِ وَالمَيْسَرَةِ فَكَانَتِ الخُيُولُ تُحْجِمُ عَنْهَا وَتَحِيدُ، وَأَرْسَلَ سَعْدٌ إلَى عَاصِمِ بنِ عَمْروٍ، وَقَالَ لَهُ: يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ، أَلَسْتُمْ أَصْحَابَ الإبِلِ وَالخَيْلِ! أَمَا عِنْدَكُمْ لِهَذِهِ الفِيلَةِ مِنْ حيلَةٍ فَقَالُوا لَهُ: بَلَى وَاللَّهِ؛ فَنَادَى عَاصِمٌ فِي رِجَالٍ مِنْ قَوْمِهِ رُمَاةٍ وَآخَرِينَ لَهُمْ

ثَقافَةٌ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الرُّمَاةِ ذُبُّوا رُكْبَانَ الفِيلَةِ عَنْهُم بِالنَّبْلِ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الثَّقَافَةِ اسْتَدْبِرُوا الفِيلَةَ فَقطِّعُوا وُضُنَهَا، وَخَرَجَ يَحْمِيهِمْ وَالرَّحَى تَدُورُ عَلَى أَسَدٍ، وَنَشِطَتْ تَمِيمٌ فِي القِتَالِ، وَنَفَّذَتْ رَأْيَ عَاصِمٍ، فَرَدَّتْ فَارِسَ إِلَى مَوَاقِعِهَا، وَاسْتَمَرَّ القِتَالُ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتْ هَدْأَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، وَتَوَقَّفَ الفَرِيقَانِ. وَأَمَرَ سَعْدٌ بِنَقْلِ الجَرْحَى وَالشُّهَدَاءِ إِلَى (العُذَيْبِ)، فَدُفِنَ الشُّهَدَاءُ، وَقَامَتِ النِّسَاءُ بِتَمْرِيضِ الجَرْحَى.

وَفِي صَبِيحَةِ اليَوْمِ الثَّانِي، وَيُعْرَفُ بِيَوْمِ (أَغْوَاثَ) وَصَلَتْ إِلَى مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ طَلاَئِعُ جُنْدِ الشَّامِ الَّذِينَ سَبَقَ لَهُمْ أَنِ انْطَلَقُوا مِنَ العِرَاقِ مَعَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ لِدَعْمِ جُنْدِ الشَّامِ فِي اليَرْمُوكِ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى المُسْلِمِينَ بِالشَّامِ، طَلَبَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى العِرَاقِ بِإِمْرَةِ هَاشِمِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ، ابنِ أَخِي سَعْدٍ، وَهُم يَوْمَئِذٍ سِتَّةُ آلاَفٍ، خَمْسَةُ آلاَفٍ مِنْ رَبِيعَةَ وَمُضَرٍ وَأَلْفٌ مِنْ أَفْنَاءِ اليَمَنِ مِنْ أَهْلِ الحِجَازِ، وَكَانَ القَعْقَاعُ بنُ عَمْرٍو التَّمِيمِيُّ عَلَى المُقَدِّمَةِ فَأَسْرَعَ القَعْقَاعُ وَوَصَلَ يَوْمَ أَغْوَاثَ مَعَ الصَّبَاحِ. كَانَتِ الطَّلِيعَةُ مَعَ القَعْقَاعِ أَلْفَ رَجُلٍ فَقَسَّمَهَا

أَعْشَاراً، وَأَمَرَ أَنْ تَنْطَلِقَ كُلُّ عَشْرَةٍ إِثْرَ أُخْتِهَا كُلَّمَا بَلَغتْ مَدَى البَصَرِ. وَانْطَلَقَ هُوَ عَلَى رَأْسِ المَجْمُوعَةِ الأُولَى، وَدَخَلَ المَعْرَكَةَ، وَطَلَبَ المُبَارَزَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ذُو الحَاجِبِ بَهْمَنْ جَاذَوَيْهِ، فَقَتَلَهُ القَعْقَاعُ. وَدَعَا إِلَى المُبَارَزَةِ ثَانِيَةً فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلاَنِ هُمَا: البِيْرَزَانُ وَالبِنْدَوَانُ، فَانْضَمَّ إِلَى القَعْقَاعِ ظِبْيَانُ بنُ الحَارِثِ، وَقَتَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا خَصْمَهُ الفَارِسِيَّ، وَتَنَشَّطَ النَّاسُ بِمَصْرَعِ أَبْطَالِ خُصُومِهِمْ، وَبِقُدُومِ جَمَاعَاتِ القَعْقَاعِ جَمَاعَةً إِثْرَ جَمَاعَةٍ. وَكَانَ اليَوْمُ الثَّانِي شَدِيداً عَلَى الفُرْسِ وَبِخَاصَّةٍ أَنَّهُمْ قَدْ قَاتَلُوا مِنْ غَيْرِ فِيلَةٍ إِذْ تَكَسَّرَتْ هَوَادِجُهَا فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ. وَاسْتَمَرَّ القِتَالُ فِي اليَوْمِ الثَّانِي حَتَّى انْقَضَى شَطْرٌ مِنَ اللَّيْلِ وَسَكَنَ النَّاسُ وَعُرِفَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بِالسَّوَادِ، عَلَى حِينَ عُرِفَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي سَبَقَتْهَا بِالهَدْأَةِ.

وَكَانَتْ صَبِيحَةُ اليَوْمِ الثَّالِثِ، وَهُوَ يَوْمُ عَمْوَاسَ، فَاصْطَفَّ النَّاسُ، وَكَانَ قَدْ أَصْلَحَ الفُرْسُ هَوَادِجَ فِيَلَتِهِمْ، وَوَصَلَ هَاشِمُ بنُ عُتْبَةَ بِمَنْ مَعَهُ فَقَسَّمَهُمْ جَمَاعَاتٍ كُلُّ جَمَاعَةٍ تَضَمُّ سَبْعِينَ رَجُلاً، وَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ القَعْقَاعُ مِنْ قَبْلُ وَقَدْ أُخْبِرَ بِالَّذِي كَانَ فَاسْتَحْسَنَهُ فَصَنَعَهُ. وَكَانَ يَوْمُ عَمْوَاسَ شَدِيداً عَلَى الفَرِيقَيْنِ فِي أَوَّلِهِ، وَفَعَلَتِ الفِيَلَةُ فِعْلَهَا فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ.

فَسَأَلَ سَعْدٌ الفُرْسَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا: أَلَيْسَ لِلْفِيْلَةِ مَقَاتِلُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، عُيُونُهَا وَمَشَافِرُهَا. فَدَعَا عَاصِماً وَأَخَاهُ القَعْقَاعَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، وَقَالَ لَهُمَا: اكْفِيَانِي الفِيلَ الأَبْيَضَ، وَدَعَا حَمَّالَ بنَ مَالِكٍ والرُّبَيِّلَ بنَ عَمْرٍو الأَسَدِيَّيْنِ، وَقَالَ لَهُمَا: اكْفِيَانِي الفِيلَ الأَجْرَبَ، وَدَلَّ كِلاَ الجَانِبَيْنِ عَلَى مَقَاتِلِ الفِيلَةِ، وَتَمكَّنَ كُلُّ جَانِبٍ مِنْ فَقْءِ عَيْنَيْ الفِيلِ الَّذِي خُصِّصَ لَهُ فَكَانَ لِلْفِيلِ صِيَاحُ الخِنْزِيرِ، وَوَلَّى الأَجْرَبُ، وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي نُهَيْرِ العَتِيقِ وَتَبِعَتْهُ الفِيَلَةُ الأُخْرَى، وَقُتِلَ الفِيلُ الأَبْيَضُ، وَانْكَشَفَتْ صُفُوفُ الفُرْسِ، وَاسْتَمَرَّ القِتَالُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ حَتَّى اللَّيْلِ، وَعُرِفَتِ اللَّيْلَةُ بِالهُرَيْرِ، وَقَدْ عَادَ القِتَالُ فِيهَا بَعْدَ أَنْ صَلَّى المُسْلِمُونَ العِشَاءَ وَبَقِيَ القِتَالُ حَتَّى الفَجْرِ.

وَكَانَ النَّصْرُ لِمَنْ يَتَحَمَّلُ وَيَصْبِرُ حَيْثُ بَدَا التَّعَبُ وَاضِحاً عَلَى الفَرِيقَيْنِ إِذْ لَمْ يَنَمْ أَحَدٌ لَيْلَةَ الهُرَيْرِ فَنَادَى القَعْقَاعُ بِالمُسْلِمِينَ وَحَثَّ عَلَى الصَّبْرِ، وَنَادَى أُمَرَاءُ القَبَائِلِ بِرِجَالِهِمْ. وَمَا كَانَتِ الظَّهِيرَةُ حَتَّى تَرَاجَعَ الهُرْمُزَانُ وَالبَيْرُزَانُ فِي القَلْبِ، وَهَبَّتْ رِيحٌ عَاصِفٌ مِنَ الدَّبُورِ فَاقْتَلَعَتْ خَيْمَةَ رُسْتُمَ وَأَلْقَتْ بِهَا فِي (العَتِيقِ)، فَاسْتَظَلَّ بِبِغَالٍ مُحَمَّلَةٍ كَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَهُ وَقَدْ قَدِمَتْ تَحْمِلُ إِلَيْهِ الأَمْوَالَ، وَوَصَلَ القَعْقَاعُ

وَمَنْ مَعَهُ إِلَى مَقَرِّ رُسْتُمَ ، وَضَرَبَ هِلاَلُ بنُ عَلَّفَةَ الحِمْلَ الَّذِي تَحْتَهُ رُسْتُمَ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ بِهِ، فَهَرَبَ رُسْتُمُ نَحْوَ العَتِيقِ فَرمى بَنَفْسِهِ فِيْهِ وَأَخَذَ يَعُومُ وَأَسْرَعَ وَرَاءَهُ هِلاَلُ فَأَخَذَ بِرِجْلِهِ وَجَرَّهُ إِلَى شَاطِىءِ النَّهْرِ وَقَتَلَهُ وَرَمَى بِهِ بَيْنَ البِغَالَ، وَصَعِدَ سَرِيرَ رُسْتُمَ وَنَادَى : قَتَلْتُ رُسْتُمَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ إِلَيَّ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ ، فَأَسْرَعُوا نَحْوَهُ وَشَدَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَائِمِهِمْ ، وَهَدَّ مِنْ كِيَانِ الفُرْسِ فَانْهَزَمُوا وَتَهَافَتُوا فِي العَتِيقِ ، وَشَدَّ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ ثَلاَثِينَ أَلْفاً وَهُمْ يُرِيدُونَ قَطْعَ العَتِيقِ . وَعُرِفَ هَذَا اليَوْمُ بِيَوْمِ القَادِسِيَّةِ. وَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِخَبَرِ النَّصْرِ. وَأُخِذَ السَّوَادُ عَنْوَةً، ثُمَّ صَالَحَ أَهْلَهُ عَلَى الجِزْيَةِ، وَمَنَ أَبَى كَانَ مَالُهُ فَيْئاً لِلْمُسْلِمِينَ .

كَانَ الجَالِنُوسُ قَدْ أَصْدَرَ الأَمْرَ إِلَى الفُرْسِ بِالانْسِحَابِ بَعْدَ القَادِسِيَّةِ وَمَقْتَلِ رُسْتُمَ وَبَعْدَ أَنْ آلَ إِلَيْهِ الأَمْرُ، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ أَمَرَ سَعْدٌ زُهْرَةَ بْنَ الحُوَيَّةِ بِمُطَارَدَةِ فُلُولِ الفُرْسِ ، وَأَمَرَ القَعْقَاعَ بنَ عَمْرٍو بِالتَّوَجُّهِ جَنُوباً وَشُرَحْبِيلَ بنَ السَّمْطِ بِالتَّوَجُّهِ شَمَالاً ، وَأَعْطَى خَالِدَ بنَ عُرْفُطَةَ مُهِمَّةَ جَمْعِ الغَنَائِمِ وَدَفْنِ الشُّهَدَاءِ.

وَقَدْ كَانَتْ بِلاَدُ العِرَاقِ الَّتِي فَتَحَهَا خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ نَقَضَتِ

العُهُودَ وَالمَوَاثِيقَ الَّتِي كَانُوا أَعْطُوهَا خَالِـداً، ثُمَّ عَادُوا بَعْـدَ مَعْرَكَةِ القَادِسِيَّةِ، وَادَّعُوا أَنَّ الفُـرْسَ أَجْبَرُوهُـمْ عَلَـى نَقْضِ العُهُودِ وَأَخَذُوا مِنْهُمُ الخَـرَاجَ، فَصَدَّقَهُـمُ المُسْلِمُـونَ تَأَلُّفـاً لِقُلُوبِهِمْ.

بَعَثَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْـنُ الخَطَّابِ إِلَى سَعْدِ بنِ أَبِـي وَقَّاصٍ يَأْمُرُهُ بِالسَّيْرِ إِلَـى المَدَائِـنِ حَاضِـرَةِ الفُـرْسِ، وَأَنْ يُخَلِّفَ النِّسَـاءَ وَالعِيَالَ مَعَ حِمَـايَةٍ كَثِيفَـةٍ مِنَ الفُرْسَـانِ فِي العَتِيقِ. بَعَثَ سَعْدٌ عَلَى المُقَدِّمَةِ زُهْرَةَ بْنَ الحُوِيَّةِ، وَأَتْبَعَهُ بِالأُمَـرَاءِ، ثُمَّ سَارَ هُوَ بِالجُيُوشِ، وَقَـدْ جَعَـلَ ابـنَ أَخِيهِ هَاشِمَ بنَ عُتْبَةَ نَائِباً عَنْهُ، وَخَالِدَ بـنَ عُرْفُطَـةَ عَلَـى السَّاقَـةِ. التَقَى زُهْرَةُ فِي مَوْقِعِ (بُرْسَ) بِـ (بُصْبُهْرَى) فَقَاتَلَهُ، وَطَعَـنَ (بُصْبُهْرَى) فَهَرَبَ إِلَى (بَابِلَ) وَقَدِ اجْتَمَعَ فِيهَا فُلُولُ مَنْ فَرَّ مِنَ القَادِسِيَّةِ وَمِنْ رُؤَسَائِهِـمْ (النَّخِيْرَجَـانُ) و (مِهْـرَانُ الـرَّازِيُّ) و (الهُرْمُزَانُ) وَغَيْرِهِمْ وَقَدْ أَمَّرُوا عَلَيْهِمُ (الفَيْرُزَانَ)، ولَـكِنَّ (بُصْبُهْرَى) لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ مِنْ طَعْنَتِهِ.

وَأَسْلَمَ دِهْقَانُ (بُرْسَ) وَأَخْبَرَ زُهْرَةَ عَنِ اجْتِمَاعِ الفُرْسِ فِي بَابِلَ، فَكَتَبَ إِلَى سَعْدٍ بِالخَبَرِ، فَسَارَ المُسْلِمُونَ إِلَيْهِـمْ، وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، بِإِذْنِ اللَّهِ، فِي بابِلَ، وَفَرَّ (الهُرْمُزَانُ) نَحْوَ

الأَهْـوَازِ، وَهَـرَبَ (الفَيْرُزَانُ) إلَـى نَهَاوَنْـدَ، وَاتَّجَـهَ (النَّخِيْرَجَـانُ) وَ (مِهْـرَانُ الـرَّازِيُّ) نَحْـوَ المَدَائِـنِ ، وَسَـارَ المُسْلِمُونَ نَحْوَ المَدَائِـنِ ، وَكُلَّمَـا الْتَقَـوْا بَجَمْـعٍ لِلْفُـرْسِ انْتَصَرُوا عَلَيْهِمْ، وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ (بَهُرْسِير) وَقَدْ تَرَاءَى لَهُمُ القَصْـرُ الأَبْيَضُ فِي المَدَائِـنِ . وَاجْتَـازَ سَعْـدٌ بِالجَيْشِ نَهْـرَ دِجْلَةَ، وَقَدْ حَمَاهُمْ عَاصِمُ بن عَمْروٍ مَعَ سِتِّمِائَةٍ مِنَ الشُّجْعَانِ عَلَى الطَّرَفِ الثَّانِـي الَّـذِي يَخْرُجُـونَ مِنْـهُ، وَقَـدْ أَمَـرَ سَعْـدٌ المُسْلِمِينَ عِنْدَ دُخُولِ المَاءِ أَنْ يَقُولُوا: نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، حَسْبُنَا اللَّهَ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللَّـهِ العَلِيِّ العَظِيمِ ، ثُمَّ اقْتَحَمَ بِفَرَسِهِ دِجْلَـةَ وَاقْتَحَـمَ النَّـاسُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ. وَعِنْدَمَا أَصْبَحُوا فِي الطَّرَفِ الآخرِ فَرَّ الفُرْسُ أَمَامَهُمْ وَدَخَلُوا المَدَائِنَ فَاقْتَحَمَهَا المُسْلِمُونَ فَلَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَداً سِوَى مَنِ اعْتَصَمَ بِالقَصْرِ الأَبْيَضِ فَدَعَاهُمْ سَعْدٌ عَلَى لِسَانِ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ثَلاثَـةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّـا كَانَ اليَوْمُ الثَّالِـثُ نَزَلُوا مِنْهُ، وَسَكَنَهُ سَعْدٌ، وَاتَّخَذَ الإِيوَانَ مُصَلًّى، وَتَـلاَ حِينَ دُخُولِـهِ قَوْلَ اللَّـهِ تَعَالَـى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّـاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، وَنِعْمَةٍ كَانُـوا فِيهَـا فَاكِهِينَ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[1] . وَصَلَّى سَعْدٌ ثَمَانِ رَكَعَاتٍ شُكْراً

---

(١) سورة الدخان: الآيات ٢٥ ـ ٢٨ .

لِلَّهِ تَعَالَى، وَجَمَّعَ بِالإِيوَانِ فِي صَفَرَ مِنَ العَامِ الخَامِسِ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمْعَةٍ فِي العِرَاقِ.

أَرْسَلَ سَعْدٌ السَّرَايَا إِثْرَ «كِسْرَى يَزْدَجِرْدَ»، وَشَرَعَ فِي جَمْعِ الغَنَائِمِ، وَأَثْمَنُ مَا جَمَعُوهُ مَلاَبِسُ كِسْرَى، وَتَاجُهُ، وَحُلِيهُ، وَسَيْفُهُ، وَبِسَاطُ إِيوَانِهِ وَكَانَ مُرَبَّعاً، سِتُّونَ ذِرَاعاً فِي مِثْلِهَا، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالبِسَاطُ مِثْلُهُ سَوَاءً، وَهُوَ مَنْسُوجٌ بِالذَّهَبِ وَاللآلِىءِ، وَفِيْهِ مُصَوَّرٌ جَمِيعِ مَمَالِكِ كِسْرَى، بِلاَدُهُ بِأَنْهَارِهَا، وَقِلاَعِهَا، وَأَقَالِيمِهَا، وَصِفَةِ الزُّرُوعِ وَالأَشْجَارِ الَّتِي فِي بِلاَدِهِ. كَمَا أَعَادَ زُهْرَةُ بَغْلاً أَدْرَكَهُ وَغَصَبَهُ مِنَ الفُرْسِ، عَلَيْهِ لِبَاسُ كِسْرَى، وَآخَرَ عَلَيْهِ أَثَاثُهُ.

خَمَّسَ سَعْدٌ الغَنَائِمَ، وَأَمَرَ سَلْمَانَ فَقَسَّمَ الأَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ بَيْنَ المُجَاهِدِينَ المُسْلِمِينَ فَكَانَ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً، وَكُلُّهُمْ مِنَ الفُرْسَانِ، وَاسْتَوْهَبَ سَعْدٌ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِ البِسَاطِ مِنَ حَيْثُ لاَ يُمْكِنُ قِسْمَتُهُ، وَكَذَلِكَ لِبَاسَ كِسْرَى، وَأَرْسَلَهَا إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَعَ بَشِيرِ بنِ الخَصَاصِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ هَذَا قَالَ: إِنَّ قَوْماً أَدُّوا هَذَا لأُمَنَاءُ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ: إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعفَّتْ رَعِيَّتَكَ، وَلَوْ رَتَعْتَ لَرَتَعَتْ.

كَانَ «يَزْدَجِرْدُ» قَدْ فَرَّ إِلَى حُلْوَانَ، وَجَمَعَ الجُمُوعَ أَثْنَاءَ

الطَّرِيقَ فَتَحَصَّنُوا فِي (جَلُولاَءَ) فَتَرَكَ كِسْـرَى «مِهْـرَانَ» أَمِيراً عَلَيْهِمْ، وَانْطَلَقَ هُوَ هَارِباً إِلَى حُلْوَانَ فَبَعَثَ سَعْـدٌ إِلَـى أَمِيرِ المُـؤْمِنِينَ يُخْبِـرُهُ الخَبَـرَ فَأَمَـرَهُ أَنْ يُقِيمَ فِي المَدَائِـنِ، وَأَنْ يَبْعَـثَ إِلَيْهِـمْ جَيْشَـاً بِقِيَادَةِ ابْـنِ أَخِيهِ هَاشِمِ بْـنِ عُتْبَةَ بنِ أَبِـي وَقَّـاصٍ، وَأَنْ يَكُونَ القَعْقَاعُ بْـنُ عَمْـروٍ عَلَى المُقَدِّمَةِ، فَفَعَلَ، وَسَارَ إِلَيْهِمُ المُسْلِمُونَ وَأَخَذُوهُـمْ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَقَعَدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ، وَقَتَلُوا مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ مِائَةَ أَلْفٍ حَتَّى جَلَّلُوا وَجْهَ الأَرْضِ بِالقَتْلَى، فَلِـذَلِكَ سُمِّيَتْ «جَلُولاَءَ»[1] وَغَنِمُوا مِنَ الأَمْوَالِ وَالسِّلاَحِ وَالذَّهَبِ قَرِيباً مِمَّا غَنِمُوا مِنَ المَدَائِنِ قَبْلَهَا. وَأَمَرَ هَاشِمُ أَنْ يَسِيرَ القَعْقَاعُ خَلْفَ مَنْ فَرَّ فَأَسْـرَعَ فَأَدْرَكَ «مِهْـرَانَ» فَقَتَلَـهُ، وَأَفْلِـتَ «الفَيْرُزَانُ» فَاسْتَمَرَّ مُنْهَزِماً. وَأَرْسَلَ هَاشِمُ خُمْسَ الغَنَائِمِ إِلَى عَمِّهِ سَعْدٍ الَّـذِي أَرْسَلَهَـا إِلَـى المَدِينَـةِ مَعَ زِيَادِ بْـنِ أَبِـي سُفْيَانَ، وَقُضَاعِيٍّ بنِ عَمْروٍ، وَأَبِي مُفَرِّزٍ الأَسْودِ.

أَقَامَ هَاشِمُ بنُ عُتْبَةَ فِي جَلُولاَءَ، وَسَارَ القَعْقَاعُ إِلَى حُلْوَانَ بِنَاءً عَلَى أَوَامِرِ الخَلِيفَةِ إِلَى سَعْدٍ، فَدَخَلَ القَعْقَـاعُ حُلْـوَانَ، وَقَبِلَ السُّكَانُ الجِزْيَةَ، وَأَقَامَ القَعْقَـاعُ فِيهَـا، وَفَـرَّ كِسْـرَى.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

وَكَذَلِكَ أَرْسَلَ سَعْدٌ جُيُوشاً لِفَتْحِ «تَكْرِيتَ» وَ «المُوصِلَ» وَ «مَاسَبَذَانَ» وَ «قَرْقِيَاءَ» وَالجَزِيرَةِ.

وَلَمْ يَطِبِ العَيْشَ لِلصَّحَابَةِ فِي المَدَائِنِ فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ فِي ذَلِكَ. وَمَصَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ الكُوفَةَ، وَانْتَقَلَ إِلَيْهَا فِي المُحَرَّمِ مِنَ السَّنَةِ السَّابِعَةِ عَشْرَةَ.

بَنَى سَعْدٌ المَسْجِدَ فِي الكُوفَةِ وَأَقَامَ قَصْرَهُ، وَبَيْتَ المَالِ تِلْقَاءَ المِحْرَابِ، وَبَنَى النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ عَلَى رَمْيَةِ سَهْمٍ مِنَ المَسْجِدِ. وَكَانَ البِنَاءُ بِالقَصَبِ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَمُرَّ العَامُ حَتَّى احْتَرَقَتْ، فَبَنُوا بِاللَّبِنِ عَنْ أَمْرِ عُمَرَ، بِشَرْطِ أَنْ لاَ يُسْرِفُوا وَلاَ يُجَاوِزُوا الحَدَّ. وَبُنِيَ لِسَعْدٍ قَصْرٌ قَرِيبٌ مِنَ السُّوقِ، فَكَانَتْ غَوْغَاءُ النَّاسِ تَمْنَعُ سَعْداً مِنَ الحَدِيثِ، فَكَانَ يُغْلِقُ بَابَهُ وَيَقُولُ: سَكِّنْ عَنِّي الصُّوَيْتَ، فَلَمَّا بَلَغَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ بَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ، فَأَمَرَهُ إِذَا انْتَهَى إِلَى الكُوفَةِ أَنْ يَقْدَحَ زِنَادَهُ، وَيَجْمَعَ حَطَباً، وَيُحْرِقَ بَابَ القَصْرِ ثُمَّ يَرْجِعُ مِنْ فَوْرِهِ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الكُوفَةِ فَعَلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ عُمَرُ، وَأَمَرَ سَعْداً أَنْ لاَ يَغْلِقَ بَابَهُ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَجْعَلَ عَلَى بَابِهِ أَحَداً يَمْنَعُ النَّاسَ عَنْهُ، فَامْتَثَلَ ذَلِكَ سَعْدٌ.

وَفِي عَامِ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الهِجْرَةِ اجْتَمَعَ أَهْلُ فَارِسَ

مِنْ كُلٍّ فَجٍّ بِأَرْضِ «نَهَاوَنْدَ» فَكَتَبَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ. وَثَارَ أَهْلُ الكُوفَةِ عَلَى سَعْدٍ فِي هَذَا الوَقْتِ، فَشَكَوْهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَكَانَ الَّذِي نَهَضَ بِهَذِهِ الشَّكْوَى رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: الجَرَّاحُ بنُ سِنَانٍ الأَسَدِيُّ فِي نَفَرٍ مَعَهُ، فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَى عُمَرَ فَشَكَوْهُ قَالَ لَهُمْ عُمَرُ: إِنَّ الدَّلِيلَ عَلَى مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الشَّرِّ نُهُوضُكُمْ فِي هَذِهِ الحَالِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَقَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، وَمَعَ هَذَا لاَ يَمْنَعُنِي أَنْ أَنْظُرَ فِي أَمْرِكُمْ.

ثُمَّ بَعَثَ مُحَمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ ـ وَكَانَ رَسُولَ العُمَّالِ ـ فَلَمَّا قَدِمَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ عَلَى الكُوفَةِ طَافَ عَلَى القَبَائِلِ، وَالعَشَائِرِ، وَالمَسَاجِدِ بِالكُوفَةِ، فَكُلٌّ يُثْنِي عَلَى سَعْدٍ خَيْراً، إِلاَّ نَاحِيَةَ الجَرَّاحِ بْنِ سِنَانَ وَأَصْحَابِهِ فَإِنَّهُمْ سَكَتُوا لَمْ يَذُمُّوا وَلَمْ يَشْكُرُوا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو سَعْدَةَ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، فَقَالَ: أَمَّا إِذْ نَاشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْداً لاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي الرَّعِيَّةِ، وَلاَ يَغْزُو فِي السَّرِيَّةِ. فَدَعَا عَلَيْهِ سَعْدٌ فَقَالَ: اللَّهُمَ إِنْ كَانَ قَالَهَا كَذِباً وَرِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَعْمِ بَصَرَهُ، وَكَثِّرْ عِيَالَهُ، وَعَرِّضْهُ لِمُضِلاَّتِ الفِتَنِ. فَعَمِيَ وَاجْتَمَعَ عِنْدَهُ عَشْرُ بَنَاتٍ، وَكَانَ يَسْمَعُ بِخَبَرِ المَرْأَةِ فَلاَ يَزَالُ حَتَّى يَأْتِيَهَا فَإِذَا عُثِرَ عَلَيْهِ قَالَ: دَعْوَةُ

سَعْدٍ الرَّجُلِ المُبَارَكِ. ثُمَّ دَعَا سَعْدٌ عَلَى الجَرَّاحِ وَأَصْحَابِهِ فَكُلٌّ أَصَابَتْهُ قَارِعَةٌ فِي جَسَدِهِ، وَمُصِيبَةٌ فِي مَالِهِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَاسْتَنْفَرَ مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ أَهْلَ الكُوفَةِ لِغَزْوِ أَهْلِ نَهَاوَنْدَ فِي غُضُونِ ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ الخَلِيفَةِ. ثُمَّ سَارَ سَعْدٌ وَمُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ وَالجَرَّاحُ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى جَاءُوا عُمَرَ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ: كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُطَوِّلُ فِي الأولَيَيْنِ وَيُخَفِّفُ فِي الأُخْرَيَيْنِ وَمَا آلُو مَا اقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ صَلاَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ.

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ لِسَعْدٍ: مَنِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَى الكُوفَةِ؟ فَقَالَ: عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عُتْبَانَ، فَأَقَرَّهُ عُمَرُ عَلَى نِيَابَتِهِ عَلَى الكُوفَةِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا شَيْخاً كَبِيراً مِنْ أَشْرَافِ الصَّحَابَةِ. وَاسْتَمَرَّ سَعْدٌ مَعْزُولاً مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَلاَ خِيَانَةٍ. وَيُهَدِّدُ عُمَرُ أُولَئِكَ النَّفَرَ، وَكَادَ يُوقِعُ بِهِمْ بَأْساً، ثُمَّ تَرَكَ ذَلِكَ خَوْفاً مِنْ أَنْ لاَ يَشْكُو أَحَدٌ أَمِيراً. وَهَكَذَا بَقِيَ سَعْدٌ أَمِيراً عَلَى العِرَاقِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَمَانِ سَنَوَاتٍ، وَلَمْ يُعْزَلْ عَنْ ضَعْفٍ وَلاَ عَنْ خِيَانَةٍ.

بَقِيَ سَعْدٌ فِي المَدِينَةِ يَعِيشُ بَيْنَ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَهُ مَكَانَتُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَهُ مَنْزِلَتُهُ بَيْنَ

الصَّحَابَةِ جَمِيعاً، لاَ يُقَرَّرُ أَمْرٌ إلاَّ وَيُسْتَشَارُ.

وَطُعِنَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَحس بِنِهَايَتِهِ فَجَعَلَ الأَمْرَ بَعْدَهُ شُورَى بَيْنَ سِتَّةِ نَفَرٍ، وَهُمْ: عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً. وَتَحَرَّجَ عُمَرُ أَنْ يَجْعَلَهَا لِوَاحِدٍ مِنْ هَؤُلاَءِ عَلَى التَعْيِينِ، وَقَالَ: لاَ أَتَحَمَّلُ أَمْرَهُمْ حَيّاً وَمَيْتاً، وَإِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِكُمْ خَيْراً يَجْمَعُكُمْ عَلَى خَيْرِ هَؤُلاَءِ، كَمَا جَمَعَكُمْ عَلَى خَيْرِكُمْ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمِنْ تَمَامِ وَرَعِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِي الشُّورَى السَّابِعَ البَاقِيَ مِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ الَّذِينَ لاَ يَزَالُونَ عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ، وَهُوَ سَعِيدُ بنُ زَيْدِ بنِ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ لأَنَّهُ ابنُ عَمِّهِ، خَشِيَ أَنْ يُرَاعَى فَيُوَلَّى لِكَوْنِهِ ابنِ عَمِّهِ، فَلِذَلِكَ تَرَكَهُ، إِذْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ كَانَ قَدْ تُوفِّيَ فِي طَاعُونِ «عَمْوَاسَ» عَامَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ، وَمَاتَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَهُمْ بَقِيَّةُ العَشْرَةِ. وَقَالَ: لَسْتُ مُدْخِلَهُ فِيهِمْ، يَعْنِي سَعِيداً. وَقَالَ لأَهْلِ الشُّورَى: يَحْضُرُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ، يَعْنِي ابْنَهُ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ - يَعْنِي بَلْ يَحْضَرُ الشُّورَى وَيُشِيرُ بِالنُّصْحِ وَلاَ يُوَلَّى

شَيْئاً ـ. وَأَوْصَى أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ صُهَيْبُ بنُ سِنَانٍ الرُّومِيُّ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَنْقَضِيَ الشُّورَى، وَأَنْ يَجْتَمِعَ أَهْلُ الشُّورَى ويُوَكِّلُ بِهِمْ أُنَاسٌ حَتَّى يَنْبَرِمَ الأَمْرُ. وَوَكَّلَ بِهِمْ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَ المُسْلِمِينَ وَجَعَلَ عَلَيْهِمْ مُسْتَحِثّاً: أَبَا طَلْحَةَ الأَنْصَارِيَّ، وَالمِقْدَادَ بنَ عَمْرٍو الكِنْدِيَّ.

فَلَمَّا مَاتَ عُمَرُ، وَأُحْضِرَتْ جَنَازَتُهُ نَزَلَ فِي قَبْرِهِ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَصُهَيْبُ، وَأَهْلُ الشُّورَى، أَمَّا الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ فَهُوَ صُهَيْبُ.

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ عِنْدَمَا جَعَلَ الشُّورَى فِي سِتَّةِ نَفَرٍ: مَنِ اسْتَخْلَفُوهُ فَهُوَ الخَلِيفَةُ بَعْدِي، وَإِنْ أَصَابَتْ سَعْداً فَذَاكَ، وَإِلاَّ فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ الخَلِيفَةُ بَعْدِي فَإِنَّنِي لَمْ أَنْزَعْهُ، يَعْنِي عَنِ الكُوفَةِ، مِنْ ضَعْفٍ وَلاَ خِيَانَةٍ[1].

لَمَّا فُرِغَ مِنْ شَأْنِ عُمَرَ، جَمَعَ المِقْدَادُ بنُ عَمْرٍو أَهْلَ الشُّورَى فِي بَيْتِ المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ، وَقِيلَ فِي حُجْرَةِ عَائِشَةَ، وَقِيلَ فِي بَيْتِ المَالِ، وَقِيلَ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ـ أُخْتِ الضَّحَّاكِ بنِ قَيْسٍ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَانَ

(١) رواه الطبراني (٣٢٠)، وابن حجر في الإصابة ٤/ ١٦٣.

طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّـهِ غَائِبـاً عَنِ المَدِينَـةِ. وَقَـامَ أَبُـو طَلْحَـةَ يَحْجُبُهُمْ، وَجَاءَ عَمْرُو بنُ العاصِ وَالمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ فَجَلَسَا وَرَاءَ البَابِ فَطَرَدَهُمَا سَعْدٌ.

وَجَعَلَ أَهْلُ الشُّورَى الأَمْرَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بـنِ عَوْفٍ لِيَجْتَهِدَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي تَوْلِيَةِ أَفْضَلِهِمْ، وَقَدْ سَحَبَ نَفْسَهُ مِنْهَا، فَاسْتَشَارَ، وَأَعْمَلَ رَأْيَهُ، وَبُويِعَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ جَمِيعاً، وَوَافَقَ أَهْلُ الشُّورَى وَسَمِعُوا وَأَطَاعُوا، كَمَا وَافَقَ المُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ.

مَعَ ذِي النُّورَيْنِ

بَقِيَ سَعْدٌ أَيَّامَ عُثْمَانَ بنَ عَفَّانَ الأُولَى فِي المَدِينَةِ يُسْتَشَارُ فِي كُلِّ أَمْـرٍ وَخَاصَّـةً فِي المُلِمَّـاتِ، وَمَكَانَتُـهُ مَعْرُوفَـةٌ فِي المُجْتَمَعِ الإِسْلاَمِيِّ كُلِّهِ.

ثُمَّ عَزَلَ عُثْمَانُ المُغِيرَةَ بنَ شُعْبَةَ عَنِ الكُوفَةِ وَوَلَّى عَلَيْهَا سَعْداً سَنَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ فَبَقِيَ فِيْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَوَلَّى مَكَانَهُ عَلَيْهَا الوَلِيدَ بنَ عُقْبَةَ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَزْلُهُ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ وَلاَ خِيَانَةٍ وَرُبَّمَا كَانَ لإِقَامَتِهِ فِي المَدِينَةِ لِيَكُونَ مِنْ رِجَالِ الشُّورَى القَرِيبِينَ.

وَكَانَتْ أَيَّامُ عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَتَّى قُرْبَ نِهَايَتِهَا أَيَّامَ خَيْرٍ حَيْثُ بَزَغَ قَرْنُ الفِتْنَةِ. وَسَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي المَدِينَةِ يُوَجِّهُ وَيُشِيرُ، وَيَقْتَدِي بِهِ النَّاسُ فَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَمِنَ العَشْرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ.

فِي الفِتْنَةِ

اعْتَزَلَ سَعْدٌ الفِتْنَةَ، فَلَمْ يَحْضُرِ الجَمَلَ وَلاَ صِفِّينَ وَلاَ التَّحْكِيمَ، وَلَقَدْ كَانَ أَهْلاً لِلإِمَامَةِ، كَبِيرَ الشَّأْنِ.

عَنْ عُمَرَ بنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ جَاءَهُ ابْنُهُ عَامِرٌ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ! أَفِي الفِتْنَةِ تَأْمُرُونِي أَنْ أَكُونَ رَأْساً؟ لاَ وَاللَّهِ، حَتَّى أُعْطَى سَيْفاً، إِنْ ضَرَبْتُ بِهِ مُسْلِماً نَبَا عَنْهُ، وَإِنْ ضَرَبْتُ كَافِراً قَتَلَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ[1] التَّقِيَّ»[2].

وَعَنْ عَامِرِ بنِ سَعْدٍ قَالَ: كَانَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ. فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ المُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ:

---

(١) الخفي: الذي لا يرغب في الشهرة، ولا يتعرّض للناس من أجلها.
(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٦٨، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٩٤.

اسْكُتْ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ»[1].

وَعَنْ حُسَين بن خَارِجَةَ الأَشْجَعِيِّ قَالَ: لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ، أَشْكَلَتْ عَلَيَّ الفِتْنَةُ. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ أَرِنِي مِنَ الحَقِّ أَمْراً أَتَمَسَّكُ بِهِ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ بَيْنَهُمَا حَائِطٌ، فَهَبَطْتُ الحَائِطَ، فَإِذَا أَنَا بِنَفَرٍ، فَقَالُوا: نَحْنُ الْمَلاَئِكَةُ، قُلْتُ: فَأَيْنَ الشُّهَدَاءُ؟ قَالُوا: اصْعَدِ الدَّرَجَاتِ، فَصَعِدْتُ دَرَجَةً ثُمَّ أُخْرَى، فَإِذَا مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِمَا، وَإِذَا مُحَمَّدٌ يَقُولُ لإِبْرَاهِيمَ: اسْتَغْفِرْ لأُمَّتِي، قَالَ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ أَهْرَقُوا دِمَاءَهُمْ، وَقَتَلُوا إِمَامَهُمْ، أَلاَ فَعَلُوا كَمَا فَعَلَ خَلِيلِي سَعْدٌ؟

قَالَ: قُلْتُ: رَأَيْتُ رُؤْيَا، فَأَتَيْتُ سَعْداً، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، فَمَا كَانَ أَكْثَرَ فَرَحاً، وَقَالَ: قَدْ خَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ خَلِيلَهُ، قُلْتُ: مَعَ أَيِّ الطَّائِفَتَيْنِ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا مَعَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ غَنَمٍ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَاشْتَرِ غَنَماً، فَكُنْ فِيهَا حَتَّى تَنْجَلِيَ[2].

---

(١) أخرجه مسلم في أول الزهد (٢٩٦٥).

(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٥٠١.

وَرُوِيَ أَنَّ ابنَ أَخِيهِ هَاشِمَ بنَ عُتْبَةَ جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: هَا هُنَا مِائَةُ أَلفِ سَيْفٍ يَرَوْنَكَ أَحَقَّ بِهَذَا الأَمْرِ فَقَالَ: أُرِيدُ مِنْهَا سَيْفاً وَاحِداً إِذَا ضَرَبْتُ بِهِ المُؤْمِنَ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئاً، وَإِذَا ضَرَبْتُ بِهِ الكَافِرَ قَطَعَ[1].

وَعَنْ عَامِرِ بنِ سَعْدٍ أَنْ أَبَاهُ حِينَ رَأَى اخْتِلاَفَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرُّقَهُمْ اشْتَرَى أَرْضاً مَيْتَةً ثُمَّ خَرَجَ وَاعْتَزَلَ فِيهَا بِأَهْلِهِ.

وَفَاةُ سَعْدٍ

اعْتَزَلَ سَعْدٌ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فِي قَصْرٍ بَنَاهُ بِطَرَفِ حَمْرَاءِ الأَسَدِ[2]. وَتُوفِّيَ هُنَاكَ بِالعَقِيقِ وَحُمِلَ إِلَى المَدِينَةِ، وَدُفِنَ فِيهَا.

عَنْ مُصْعَبِ بنِ سَعْدٍ قَالَ: كَانَ رَأْسُ أَبِي فِي حِجْرِي، وَهُوَ يَقْضِي. فَبَكِيتُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ مَا يُبْكِيكَ؟ قُلْتُ: لِمَكَانِكَ وَمَا أَرَى بِكَ. قَالَ: لاَ تَبْكِ فَإِنَّ اللَّهَ

(١) الإصابة ٢/ ٣٣.
(٢) موضع يقع جنوب المدينة على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً منها. وهو المكان الذي وصل إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم في مطاردته لقريش إثر غزوة أحد، والموضع بوادي العقيق.

لاَ يُعَذِّبُنِي أَبَداً، وَإِنِّي مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، إنَّ اللَّهَ يَدِينُ المُؤْمِنِينَ بِحَسَنَاتِهِمْ مَا عَمِلُوا لِلَّهِ [١].

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: أَنَّ سَعْداً لَمَّا احْتَضَرَ دَعَا بِخَلَقِ جُبَّةِ صُوفٍ، فَقَالَ: كَفِّنُونِي فِيهَا، فَإِنِّي لَقِيتُ المُشْرِكِينَ فِيهَا يَوْمَ بَدْرٍ، وَإِنِّي خَبَّأْتُهَا لِهَذَا اليَوْمِ [٢].

وَعَنْ عَبَّادِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، [أَنَّهُ لَمَّا تُوفِّيَ سَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَرْسَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمُرُّوا بِجنَازَتِهِ فِي المَسْجِدِ، فَفَعَلُوا فَوُقِفَ بِهِ عَلَى حُجَرِهِنَّ فَصَلَّيْنَ عَلَيْهِ]. وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَبْكِي وَتَقُولُ: بَقِيَّةُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ سَعْدُ آخِرُ المُهَاجِرِينَ وَفَاةً.

تُوفِّيَ سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَعُمْرُهُ يَقْرُبُ مِنْ خَمْسَةٍ وَثَمَانِينَ عَاماً، وَصَلَّى عَلَيْهِ مَرْوَانُ بنُ الحَكَمِ أَمِيرُ المَدِينَةِ.

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) أخرجه الحاكم ٣/ ٤٩٦، والطبراني في الكبير (٣١٦) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٢٥.

وَصِيَّةُ سَعْدٍ

عَنْ عَامِرِ بن سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَرِضْتُ مَرَضاً أَسْقَبْتُ مِنْهُ عَلَى المَوْتِ[1]، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَعُودُنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِي مَالٌ كَثِيرٌ وَلَيْس يَرِثُنِي إلاَّ ابْنَتِي[2]، أَفَأُوصِي بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: لاَ، قُلْتُ: فَالشَّطْرُ؟ قَالَ: لاَ، قُلْتُ: فَالثُّلْثُ؟ قَالَ: الثُّلْثُ، وَالثُّلْثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ إنْ تَتْرُكْ وَلَدَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، إنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي امْرَأَتِكَ، وَلَعَلَّكَ إنْ تُخَلَّفْ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنَّ البَائِسَ سَعْدَ بنَ خَوْلَةَ يَرْثِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ[3].

كَانَ سَعْدٌ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَجُلاً قَصِيراً، دَحْدَاحاً، غَلِيظاً، ذَا هَامَةٍ، شَثْنَ الأَصَابِعِ، أَشْعَرَ.

---

(١) كان سعد، رضي اللّه عنه، قد مرض في مكة، حين خرج رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، إلى حنين، فلما قدم من الجعرانة معتمراً دخل عليه، وهو وجع مغلوب.

(٢) لم يكن له يومئذٍ بعد إلا بنتاً واحدةً، ورُزق بأولاده البقية كلهم بعد ذاك.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد.

كَانَ حَادَّ البَصَرِ، يَرَى مِنْ بَعِيدٍ، مَا لاَ يَرَى غَيْرُهُ.

كَانَ غَنِيّاً ذَا مَالٍ كَثِيرٍ، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ قَالَتْ: أَرْسَلَ أَبِي إِلَى مَرْوَانَ[1] بِزَكَاتِهِ خَمْسَةَ آلاَفٍ، وَتَرَكَ يَوْمَ مَاتَ مِائَتَيْ أَلْفٍ وَخَمْسِينَ أَلْفاً[2].

كَانَ عَلَماً بَيْنَ النَّاسِ، عَنْ عَلِيِّ بنِ زَيْدٍ عَنِ الحَسَنِ قَالَ: لَمَّا كَانَ الهَيْجُ فِي النَّاسِ، جَعَلَ رَجُلٌ يَسْأَلُ عَنْ أَفَاضِلِ الصَّحَابَةِ، فَكَانَ لاَ يَسْأَلُ أَحَداً إِلاَّ دَلَّهُ عَلَى سَعْدِ بنِ مَالِكٍ.

لَهُ فِي مُسْنَدِ «بَقِيِّ بنِ مَخْلَدٍ» مِائَتَانِ وَسَبْعُونَ حَدِيثاً. وَلَهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْهَا ثَمَانِيَةٌ وَثَلاَثُونَ حَدِيثاً، اتَّفَقَا عَلَى خَمْسَةَ عَشَرَ، وَانْفَرَدَ البُخَارِيُّ مِنها بِخَمْسَةِ أَحَادِيثَ وَمُسْلِمٌ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَدِيثاً.

---

(١) مروان: مروان بن الحكم أمير المدينة يومذاك.
(٢) سير أعلام النبلاء.